

الفصل الحادي والعشرون

إتساع نطاق الحملة

١٧٥٨ - ١٧٧٤

هلفشيوس ١٧١٥ - ١٧٧١

١ - تطوره :

إنحدرت الأسرة من أصل سويسري ألماني مثل هؤلاء الأقوام الأشداء الممتلئين نشاطاً الذين تزدهر وتزدهر بهم اليوم برن وزيويخ . واتخذ أحد الأعضاء في نيوشاتل إسم Schweitzer ومعناه سويسري . وحمل آخر إنتقل إلى الأراضي الوطنية إسم Helvetius ومعناه أيضاً سويسري ، وانتقل هذا الفرع الثاني إلى باريس حوالي ١٦٨٠ ، وهنا أصبح جان كلود أدريان هلفشيوس طبيباً للملكة ماري لوزنيسكا . ومن أولاده العشرين يعيننا هنا كلود أدريان الذي ولد في ٢٦ يناير ١٧١٥ والذي نشأ وترعرع في كنف الطب الذي ترك بعض بصمات على فلسفته وبعد أن تلقى تعليمه على يد الجزويت في كلية لويس العظيم تتلمذ على يد أحد جياة الضرائب . وسرعان ما أثرى . وفي سن الثالثة والعشرين بلغ دخله نحو ٣٦٠ ألف جنيه في السنة ^(١) وكان وسيماً وراقصاً ومبارزاً بارعاً كما كان محبوباً لدى رجال الحاشية ونسائها ، وعين سديراً للشئون الداخلية للملكة . ولم يكن مستعداً بأية حال ليكون فيلسوفاً ، اللهم إلا أنه كان يحذق تأليف الكتب :

والله ، أنه في ١٧٣٨ ألقى بفولتير فروعه عقله وشهرته وراوده حلم الكتابة والتأليف . فهلا يكون إمتيازاً غريباً أو غير مألوف أن يكون رأسالياً وفيلسوفاً في وقت معا؟ وقضى بعض الوقت في بوردو ضيفاً على منتسكيو،

ثم في برجندى مع بيفون . وعمل تأثير هذين الرجلين على تشكيل هلفشيوس ، وأصبح صديقاً وثيق الصلة بمليونير آخر هو البارون دي هولباخ الذى كان الزعيم المادى فى هذا العصر . وفى أمسيات العشاء لدى البارون وفى صالون مدام دي جرافيني التى بديدرو وجريم وروسو ود يكلوس وجاليانى ومارمونتيل وترجو . ومن ثم تحولت إتجاهاته .

وفى ١٧٥١ إتخذ قرارين خطيرين ، فتخلى عن منصبه الوفير الكسب وهو منصب الملتزم العام للضرائب ، ولجأ إلى ضيعة إقطاعية فى Vore - au perche وتفرغ لتأليف كتاب يهز العالم وفى العام نفسه وهو فى السادسة والثلاثين تزوج من آن كاترين دي لينيفيل دي أوتريكورت ؛ وهى كونتيسة من الامبراطورية الرومانية المقدسة ، وكانت آنذاك فى الثانية والثلاثين من العمر وهى من أحمل السيدات وأكثرهن كياسة وعقلا فى فرنسا وأخذها على الفور إلى بلدته فوريه حتى لاتفسدها باريس على حد قول جريم . وهناك أوفى باريس دخل فونتيل وكان يناهز مائة عام إلى حجرة ملابس الكونتيسة الجميلة وهى تكاد تكون عارية تماماً ، فصرخ وهو يرتد من من الحجرة فرحا : آه ياسيدتى لو أنى كنت فى سن الثمانين فقط (٢) .

واحتفظ الزوجان السعيديان كذلك بدار فى باريس . وهناك جذب إليها كرم هلفشيوس ومفاتن زوجته كثيراً من قادة الفكر مثل ديدرو ودى هولباخ وفونتيل وبيون ودالمير وبيفوت وترجو وحالبانى وموريلى وكوندرسيه وهبوم . ويقول مارمونتيل : كم أصبحت هذه الدار ملائمة مريحة لرجال الأدب (٣) وحاول هلفشيوس فى حفلات العشاء أن يوجه المناقشة إلى الموضوعات التى فكر فى أن يكتب فيها ، ويشير النقد لأفكاره وأبدى أنه يصغى كل الاصغاء لما يقال من نقد ، وشكا موريليه من أن هلفشيوس يؤلف كتابه شركة بينهم (٤) .

وظل هلفشيوس يعمل فى إعداد الكتاب سبع سنين دأبا ، حتى خرج

الكتاب المرموق في ١٥ يولية ١٧٥٨ بعنوان « الذكاء » ولشد ما كانت دهشة الأصدقاء الذين رأوا المخطوطة حين ظهر الكتاب متمتعا بالترخيص الملكي الثمين بالنشر . ذلك أن ما لشرب كان قد عهد إلى جان بيير ترسييه بمراجعة الكتاب تمهيداً لنشره (عمل الرقابة على المصنفات) ، فقرر ترسييه « من رأي أنه ليس في الكتاب ما يحول دون نشره^(٥) ولكن المحامي العام في برلمان باريس دفع الكتاب في ٦ أغسطس بأنه محشو بالهرطقة والكفر ، وألغى مجلس الدولة في ١٠ أغسطس الترخيص بالطبع ، وسرعان ما عزل ترسييه عن مناصبه المربحة . ودفع يهاجم المسيحية قائلاً : بأي لون من الإلحاد والكفر يتهمونني ؟ أنا لم أنكر في أي جزء من الكتاب التثليث أو ألوهية المسيح أو خلود الروح أو بعث الموتى أو أية ناحية أخرى من نواحي العقيدة الباطنية ، ومن ثم فاني لم أهاجم الديانة بأي شكل من الأشكال^(٦) . ونحشى فولتير أن يرسل هلفشيوس إلى الباستيل فنصحة بالرحيل ، ولكن هلفشيوس كان مستريحاً في ذلك إلى حد لا يضحى معه من أجل الكتاب ، فأصدر تراجعاً في صيغة رسالة إلى قسيس ، فأعلنت الحكومة بأن هذا غير كاف فنشر هو اعتذاراً يقول جريم « أنه مذل إلى حد لا يدهش معه المرء أن يرى رجلاً يؤثر أن يلجأ إلى الهوتنتوت (قبائل السود في جنوب أفريقية) على أن يضع اسمه على مثل هذه الاعترافات^(٧) » وقصدت مدام هلفشيوس إلى فرساي لتشفع لزوجها ورضيت الحكومة بأن يأوى إلى ضيعته لمدة عامين ، وربما أصبحت العقوبة أشد من ذلك لولا أن الملك تذكر أن والد هلفشيوس أنقذ حياته ذات مرة حين كان طبيباً للملكة . وفي ٣ يناير إتهم البابا كليمنت الثالث عشر الكتاب بأنه مخز فاسق لا يلتزم قواعد الدين ، وفي فبراير أحرق علناً بأمر من البرلمان . ولقد رأينا كيف أن هذه « الضجة حول مسألة تافهة كما سماها فولتير قد أسهمت مع مقالة دالمبير عن جنيف في تضيق الحناق على موسوعة ديدرو ، وبكل هذا الإعلان الواسع النطاق عن كتاب « الذكاء » تهافت الناس على قراءته أكثر مما أقبلوا على أي كتاب

لعب دوراً في الحملة على المسيحية . وظهرت منه عشرون طبعة بالفرنسية على مدى ستة أشهر . وسرعان ما ترجم إلى الإنجليزية والألمانية واليوم لا يعرف عنه شيئاً إلا القليل من العلماء والباحثين ويكاد يكون من المتعذر الحصول على نسخة منه .

ولم ينشر هلفشوبوس شيئاً بعد ذلك ، ولكنه استمر يكتب . وصرح ثانية وتوسع متروياً غاضباً في شرح وجهات نظره في رسالة «عن الإنسان» وهي التي هاجم فيها رجال الدين بوصفهم باعة متجولين يتجرون في الرجاء والخوف وينشرون الجهل ويقتلون الفكر . وفي هذين الكتابين نجد كل مثله العليا في هذا العصر الطموح ، الحرية والمساواة والأخوة : حرية الكلام والصحافة والاجتماع والعبارة ، والمساواة بين الجنسين كليهما ، وبين كل الطبقات في فرص التعليم وأمام القانون ، وتأييد يكاد يكون إشتراكياً لدولة الخير العام حماية وتعويضاً للمفقر السذج ضد الأغنياء الأذكياء . وكل هذه الآراء والمثل العليا يتوجهها إيمان شبيه بالإيمان الديني في إمكان بلوغ الجنس البشري مرتبة الكمال المطلق . وهنا أيضاً إذا أصغينا جيداً لسمعنا صوت الثورة .

٢ - فلسفته :

ومثل كل الفلاسفة تقريباً يبدأ هلفشوبوس بلوك . فكل الأفكار مستمدة من الإحساس ، ويلى ذلك من خبرة الفرد . فكل الحالات العقلية عبارة عن مجموعات متضامة من الأحاسيس يشعر بها الإنسان حالياً أو تنبعث من جديد من الماضي عن طريق الذاكرة ، أو يتصورها مستقبلاً عن طريق الخيال . أما إصدار الحكم أو إتخاذ القرار فهو الاحساس بالفوارق بين الأحاسيس . أما العقل فهو مجموعة من الأحكام أو القرارات .

وليس الذهن والنفس شيئاً واحداً فالذهن هو تجمع أو تعاقب للحالات العقلية . أما النفس فهي حساسية الكائن الحي أى القدرة على إستقبال

الأحاسيس وكل الإحساس مادي . وكل النفس قوة في المادة . أن كل ظواهر الطب والتاريخ الطبيعي تثبت بوضوح أن هذه القوة . . . تبدأ بتكوين أعضاء الجسم ، وتبقى ما بقيت ثم تنقضي هذه النفس بانحلال هذه الأعضاء وفنائها^(٨) . وللحيوانات أنفس . ويسموا الإنسان على الحيوان بفضل نموه واستواء قامته حيث تتحول قوائمه الأمامية تدريجاً إلى أيد قادرة على الإمساك بالأشياء ومعالجتها .

وحيث بدأ هلفشيوس بجون لوك فإنه يتابع المسيرة مع هوبز . فكل عمل رغبة تستجيب لأحاسيس حالية أو مبتعثة . والرغبة هي تذكر الله التي أقرنت بأحاسيس معينة ، والأنفعال رغبة ملحة ، وتختلف في شدتها تبعاً للألم أو اللذة المتذكورة والمتوقعة . والأنفعالات تؤدي بنا غالباً إلى الخطأ ، لأنها تركز إنتباهنا على ناحية معينة من شيء أو موقف بعينه ولا تهيء لنا المجال لتدبره من جميع جوانبه^(٩) . والذكاء بهذا المعنى هو تأخر رد الفعل ليهيء إدراكاً أوسع وإستجابة أوفى . وعلى الرغم من ذلك فالأنفعالات بالنسبة للخلق هي الحركة بالنسبة للمادة . وهي تزودنا بالدافع حتى الدافع إلى المعرفة . فالإنجاز العقل لأى شخص يختلف تبعاً لحدة أنفعالاته فالإنسان العبقري إنسان ذو إنفعالات قوية والإنسان الغبي مجرد منها^(١٠) . والأنفعال الأساسى هو حب القوة والسيطرة ، وهو أساسى لأنه يزيد في قدرتنا على تحقيق رغباتنا .

وعند هذا الحد إستحق عمل هلفشيوس ما وصفه به فولتير من أنه « عجة بيض » أى خليط من الأفكار التي كانت سائدة منذ عهد طويل في دنيا الفلسفة ، ولكنه إنطلق الآن إلى أكثر آرائه ومسائله إمتيازاً . فحيث أن كل الأفكار تنبع من خبرات الفرد وتجاربه فإن التباين بين أفكار الأفراد والأمم وخلقها يعتمد على الفوارق بين بيئة الفرد أو الأمة . ولدى كل الناس عند مولدهم استعداد متساو للفهم والحكم وليس ، هناك تفوق فطرى أو طبيعى في الذهن . لقد رهب الجميع قوة وقدرة على الإنتباه كافيتين

للأرتفاع بهم إلى مرتبة الرجال اللامعين المرموقين إذا كانت البيئة والتعليم والظروف ملائمة لهم . وعدم المساواة في القدرة والأهلية هو دائماً نتيجة الاختلاف في الموقف الذي تصادف أن وضعوا فيه (١١) .

« وفي المحظة التي يخرج فيها الطفل من بطن أمه . . . يدخل إلى حياة دون أفكار ودون انفعالات . وكل ما يحس به هو الجوع . إننا في المهيد (أي عن طريق الوراثة) لا نتلقى انفعالات الزهو والكبرياء والجشع والطمع والرغبة في حسن التقدير والمجد والعظمة . إن هذه الانفعالات المهيبة للشفاق والشغب التي تتولد بين البندان والمدن تفترض مقدماً وجود تقاليد وقوانين قائمة بالفعل بين الناس . . . ومثل هذه الانفعالات لا تكون معروفة لدى من تحمله ساعة مولده عاصفة إلى صحراء مقفرة يغذيه ذئب مثل روميلاوس . وحب المجد والعظمة شيء مكتسب ، ومن ثم فهو نتيجة درس وتعليم (١٢) » .

وحتى العبقرية نفسها نتاج البيئة ، أي الخبرة بالإضافة إلى الظروف ويضيف العبقري الخطوة الأخيرة إلى خطوات أكتشفت واتخذت قبله . وهذه الخطوة الأخيرة تكون تبعاً للظروف . وكل فكرة جديدة هي نعمة من نعم الصدفة ، أي سلسلة من النتائج والأثار لأندرك لها سبب (١٣) .

« ومن أين يأتي عدم المساواة التامة في الفهم والذكاء ؟ السبب في هذا هو أن أي إنسان لا يدرك على وجه الدقة نفس الأشياء ، وليس هو على وجه الدقة في نفس الموقف ، ولم يتلق نفس التعليم ، كما أن الصدفة أو الحظ الذي يسمو على تعليمنا لا يؤدي بكل الناس إلى كنوز غنية مثمرة بقدر سواء . وإننا من أجل هذا ننسب إلى التعليم - بكل ما في هذه الكلمة من معنى - مع أخذ فكرة المصادفة والحظ في اعتبارنا - ننسب عدم المساواة في الفهم والذكاء (١٤) .

ومن الجائز أن هذا التحليل النفسي وهو سخى بصفه خاصة من أحد أصحاب الملايين ، مشتق أو نابيع من وضع سياسي . فالمتأفطون يؤكدون

فوارق الوراثة وتأثيرها ، والحاجة إلى الحرص والحذر في تغيير النظم المتأصلة في عدم المساواة الطبيعية والمحلية في القدرة والخلق . أما دعاة الإصلاح فيؤكدون على فوارق البيئة وتأثيرها ، مما يجعل عدم المساواة في القدرة والقوة والثروة يبدو راجعاً إلى المصادفة والحظ ، إلى مفارقات المولد وميزات الظروف أكثر منه إلى جدارة فطرية . ومن ثم يمكن خفض عدم المساواة بالمساواة في التعليم وتحسين البيئة . ويطبق هلفشيوس نظريته في المساواة الطبيعية على الأجناس والأفراد . فكان يمكن أن تصل كل الأجناس إلى نمو متساو إذا تساوت الفرص البيئية لديها . وينتج عن هذا أن الغرور القومي أو الاعتزاز بالجنس مثل الغرور الفردي أو إعتزاز الفرد بنفسه ، ليس له في الواقع أي مبرر . أن الحرية التي يفاخر بها الأنجليز . . . ليست جزاء لشجاعتهم بقدر ما هي نعمة الحظ - « أعني القنال الانجليزي والبحار التي تحميهم (الحرية الداخلية إذا تساوت الأشياء الأخرى تتفاوت عكسياً مثل الخطر الخارجي) .

وواضح على هذه الأسس أن طريق التقدم يتبع تحسين التعليم والمجتمع والحكومة . « إن التعليم قادر على التأثير في كل شيء » . ألا يدرّب التعليم الدب على الرقص^(١٥) ؟ أن كل التقدم ، حتى في الاخلاق يتوقف على إنتشار المعرفة وتدريب الذكاء . إقضى على الجهل وبذلك تقضى على كل بذور الشر^(١٦) ومن أجل الأقتراب من هذا الهدف يجدر أن يعاد بناء نظام التعليم في فرنسا كما ينبغي أن يحرر من ربطة الكنيسة ويعهد به إلى الدولة ، كما يجب أن يكون في متناول كل الأفراد من الجنسين كليهما وفي كل الأعمار . ويجدر أن يحلّ تدريس العلوم والتقنيات محلّ تعليم اللاتينية والأغريقية ، ويجب أن يكون ثمة تركيز جديد على بناء الأجسام الصحيحة « والعقول السليمة المتمسكة بالفضيلة^(١٧) » .

وعلى الرغم من أن هلفشيوس لم ينكر أية تعاليم مسيحية نراه هنا يدخل في دعوى مثيرة بقصد تقليص نفوذ الكنيسة في فرنسا . أنه مهاجم الكنيسة من

وجهة نظر اجتماعية لا لاهوتية ، أنه يشجب وجهة النظر الكاثوليكية في تمجيد العزوبة والفقير ، ولكنه يطرب ويتهج لأن قلة ضئيلة من المسيحيين هم الذين ينظرون إلى هذه الأفكار بعين الجدل . « أن ميلا خفياً إلى الشك وعدم التصديق يقاوم هذا الأثر الحبيث المؤذي للمبادئ الدينية^(١٨) أنه يتهم سيطرة الكاثوليك على التعليم لا بأنها تعوق التقدم الفني والعلمي في الأمة بتجاهل العلوم والاستخفاف بها فحسب ، بل بأنها كذلك تمكن رجال الدين من تشكيل ذهن الطفل لأخضاعه للسيطرة الكهنوتية^(١٩) .

« إن رغبة رجال الدين في كل العصور إنصرفت إلى القوة والنفوذ والثراء . وبأية وسيلة يمكن أشباع هذه الرغبة ؟ ببيع الرجاء (في التعليم) والخوف (من الحجيم) . إن الكهنة وهم تجار جملة في هذه السلع كانوا يحسون ويدركون أن هذا البيع سيكون مؤكداً راجحاً^(٢٠) وتتوقف قوة الكاهن وسلطانه على الحرافات ، وعلى تصديق الناس في غباء وحمق لهم . وليس لتعليمهم قيمة لديه . وكلما قلت المعرفة عندهم ازدادوا إمتثالاً لأوامره^(٢١) إن أول هدف للكهنة في كل ديانة هو خلق حب الاستطلاع عند الناس ، والحيلولة دون فحص أية تعاليم ومبادئ يكون سخفها ملموساً محسوساً إلى حد لا يمكن إخفاؤه^(٢٢) لقد ولد الإنسان جاهلاً ، ولكنه لم يولد مغفلاً أبلاً ، وليس إلا بالجهد والمشقة ليكون كذلك ، ولا بد لذلك وليكون قادراً على أطفاء هذا النور الطبيعي في داخله من إستخدام كثير من الخداع والحيل والأساليب ، ومن ثم يكسب التوجيه والتربية في ذهنه أخطاء فوق أخطاء^(٢٣) وليس ثمة شيء تعجز قوة الكهنوت بمساعدة الحرافة عن تنفيذه ، لأنها تسلب الحكام والنمضاة سلطانتهم وسيادتهم ، والملوك سلطتهم الشرعية ، وبذلك تخضع الناس وتحرز السيطرة عليهم . وغالبا ما تكون هذه أعلى من سيادة القوانين ، ومن ثم تفسد في النهاية المبادئ الاخلاقية نفسها^(٢٤) .

ويضيف هلفشيوس ثمانية فصول عن التسامح .

« أنه التعصب أو عدم التسامح الديني هو ربيب الطمع الكهنوتي ومرعة التصديق الغبي الأحديق^(٢٥) . . . وإذا أنا صدقت مربيتي أو معلمي ! إن كل ديانة أخرى باطلة زائفة ، وديانتي وحدها هي الصحيحة الحققة . ولكن هل يعترف العالم كله بهذا ؟ لا ، فإن الأرض لاتزال تئن تحت وطأة المعابد الكثيرة الموقوفة على الخطأ^(٢٦) . وماذا يعلمنا تاريخ الأديان ؟ أنها أضاعت في كل مكان مشعل التعصب وملأت السهول بالجثث ونخضبت الحقول بالدماء واحرقت المدن وإقامت أمبراطوريات مهلهلة^(٢٧) . اليس الأتراك ، ودينهم دين جهاد وحرب ، أكثر تسامحاً منا ؟ إننا نشهد الكنائس في القسطنطينية وكننا لأنرى مساجد في باريس^(٢٨) . أن التسامح يخضع الكاهن للأمر ولكن التعصب يخضع الأمير للكاهن^(٢٩) .

ويميل هلفشيوس إلى القول باستثناء واحد في جانب التعصب ، حيث يقول : « هناك سبب واحد يمكن أن يكون فيه التعصب ضاراً بالشعب ، حيث يكون التسامح مع عقيدة تتسم بالتعصب مثل الكاثوليكية . فإن مثل هذه العقيدة التي تصبح أقوى ما تكون في دولة ما سوف تسفك دائماً دماء حماها الأغبياء . لا تسمحوا للكاثوليك المتملقين أن يستغلوا البروتستانت . إن المساوسة الذين يعتبرون التعصب في بروسيا أمراً بغيضاً وخرقاً للقانون الطبيعي والساوى ينظرون إلى التسامح في فرنسا على أنه جريمة وهرطقة . وماذا يجعل الإنسان مختلفاً عن غيره في مختلف الأقطار ؟ ليس إلا ضعفه في بروسيا وقوته في فرنسا . وإذا تأملنا في سلوك المسيحيين الكاثوليك ، لوجدنا أنهم في البداية حين يكونون ضعافاً يبدون وكأهم حملان وديعة حتى إذا أصبحوا أقوىاء كانوا وحوشاً ضارية^(٣٠) .

وأدلى هلفشيوس من حين إلى حين بكلمة طيبة عن المسيحية ، وبخاصة عن البروتستانتية ولم يكن ملحداً ولكنه كره تصوير الأصفار المقدسة للإله

طاغية . . . يعاقب على الهنات الهيئات بالعذاب المقيم (٣١) . وراوده
الأمل في ديانة عالمية « تقيم تحت رقابة الدولة « أخلاقيات طبيعية » متحررة
من الثواب والعقاب بعد الموت (٣٢) . ووضع العقل الإنساني فوق كل دعاوى
الإنسان للوحي الإلهي . فإن الرجل الأمين سوف يمتثل دائماً لعقله مؤثراً
إياه على الوحي . لأنه سيقول بينه وبين نفسه عن يقين بالغ بأن الله هو منشىء
العقل البشرى أكثر من أنه مؤلف كتاب بعينه (٣٣)

ولكن أليست المعتقدات الحارقة والوازع الديني ضرورية لفاعلية القانون
الأخلاقي ؟ يقول هلفشيوس . كلا « ليس على الدين ولكن على التشريع
أو القانون وحده تتوقف رذائل الناس وفضائلهم وقوتهم وهنأتهم . . .
إن كل جريمة لا يعاقب عليها القانون تقترف كل يوم فأى دليل أقوى من هذا
على عقم الدين وعدم جدواه ؟ ...

ومن أين ينشأ الأمن الحالى فى باريس ؟ هل ينشأ من تقوى أهلها وتبتلهم ؟
كلا إنما ينشأ من نظام الشرطة ويقظتهم . . . وفى أية فترة أصبحت القسطنطينية
وكر الرذائل ؟ فى نفس اللحظة التى قامت فيها المسيحية هناك . . . إن أشد
الملوك تمسكاً بالمسيحية لم يكونوا أعظم الحكام . إن قليلاً منهم تحلوا
بفضائل تيتس أوتراجان أو انطونينس وأى أمير تقى ورع يمكن أن يقارن
بهؤلاء ؟ (٣٤)

ومن هنا بدا لهلفشيوس أن مهمة الفلسفة أن تبتكر وتنشر أخلاقيات مستقلة
عن العقيدة الدينية . ومن وجهة النظر هذه كتب ما أسماه أحد الباحثين « أعظم
اختيار على الأخلاق الاجتماعية خطه يراع أى فيلسوف (٣٥) أنه عقد العزم
على ألا ينتقص من قدر الطبيعة البشرية أو يجعلها مثالية ، بل يأخذها كما وجدها
بكل ما فيها من أنانية ، ويحاول إن يبنى عليها أخلاقاً طبيعية . إن الإنسان
ليس خيراً أو شراً بالطبيعة . إنه مخلوق حاول أن يحافظ على ذاته فى عالم
يحاول كل كائن آخر فيه أن يفتك به إن عاجلاً أو آجلاً (٣٦) . إن الصورة التى
كان قد رسمها روسو حديثاً للمجتمع البدائى بدت لهلفشيوس خيالا تافهاً

غير ذى قيمة . وكان هوبز أقرب إلى الحقيقة حين وصف « حالة الطبيعة » بأنها صراع كل فرد ضد الجميع . إن لفظي الخير والشر في تطبيقهما على الناس ليس لهما معنى إلا في مجتمع ، وكل الطيبة فضيلة اجتماعية وهي نتاج التدريب أو التعليم الاجتماعى على الغايات والأغراض الاجتماعية . « إن الأمير الذى يثق فى استقامة الخلق الفطرى المتأصل فى النفوس شقى تعس . إن روسو يفترض وجود هذه الاستقامة ، ولكن الخبرة تنكر وجودها . وكل من يتأمل فى هذا سينتهى إلى أن الطفل يقتل الذباب ويضرب كلبه ويخنق عصفوره أى أن فى الطفل كل ردائل الرجل . إن الرجل وهو فى أوج سلطانه ، (متحرراً من كل القيود والضوابط الاجتماعية) غالباً ما يكون جائراً ظالماً . والطفل القوى مثله تماماً : فإنه إذا لم يكبح جماحه وجود رفاقه مثل الرجل فى أوج سلطانه يستحل لنفسه حلوى رفيقه وأدوات لعبه ويستولى عليها (٣٧)

ومن الواضح عندئذ أنه ليس هناك حاسة أخلاقية فطرية ، فكل الأحكام على الخطأ والصواب تنمو عن طريق خبرة الفرد نتيجة لتعاليم أسرته وجماعته وحكومته وكنيسته ، وفرضها عليه قسراً . فإذا تحرر الفرد من هذا القسر . كما هو الحال فى الحكم المطلق أو الحرب أو الزمام فإنه يميل إلى العودة إلى مخالفة القانون والتمرد عليه ، وإلى عدم التمسك بالمبادئ الأخلاقية . وهنا « لاتكون الأخلاق فى معظم الأمم آنئذ إلا مجرد مجموعة من تعاليم وقواعد سلوكية يعلوها ويفرضها الأقوياء ليضمنوا سيطرتهم وسيادتهم ، مع الاستمرار فى ظلمهم وطغيانهم ، مع الافلات من أى عقاب » ولكن الأخلاق بمعناها الصحيح هى « معرفة الوسائل التى يبتدعها الناس ليعيشوا معاً وجنباً إلى جنب فى أسعد حال . . . وإذا كان من بيدهم الأمر والسلطة لا يعارضون تقدم المعرفة بهذه الوسائل فإنها تنهض وتتقدم كلما اكتسب الناس معرفة جديدة» (٣٩) .

وهلفشيوس يعتقد صراحة مذهب المتعة (اللذة أو السعادة) . وهى الخير الرئيسى أو الأوحد فى الحياة : فالسعادة هى هدف الحياة هنا على الأرض ، والسعادة هى استمرار اللذة ودوامها ، وكل اللذة حسية أو فيسيولوجية

أساساً^(٤١) « إن نشاط الذهن واكتساب المعرفة ، هما أعظم اللذات إشباعاً على الدوام^(٤١) ولكنهما ماديات أيضاً بصفة جوهرية . والزهد أو التقشف ضرب من الحمق . واللذة الجنسية مشروعة تماماً إذا لم تؤذ أحداً . وليست الفضيلة هي الأمثال لشرائع الله بل هي السلوك الذي يوفر أعظم اللذة لأكثر عدد من الناس . وهنا وبشكل واضح يصوغ هلفشيوس الأخلاق النفعية التي جاء بها بالفعل هتشنسون (١٧٢٥) والتي شرحها بتام فيما بعد (١٧٨٩) .

« لكي تكون فاضلاً يجب أن تجمع بين نيل النفس والعقل المستنير . وهذا الذي يجمع بين هاتين النعمتين إنما يتجه إلى المنفعة العامة . وهذه المنفعة هي قاعدة كل الفضائل الإنسانية وأساس كل تشريع . . . و كل القوانين يجب أن تتبع مبدأ أو قاعدة واحدة وهي نفع الناس جميعاً أي أكبر عدد من الناس في ظل الحكومة نفسها . . . فهذا المبدأ يتضمن كل الأخلاقيات وكل التشريع^(٤٢) .

وعلى الرغم من ذلك فإن كل الأفعال في رأي هلفشيوس مهما كانت اخلاقية وفاضلة أنانية . وقد لا تكون الأفعال بالضرورة أنانية ، فكثير منها يتسم بالغيرية (حب الغير) بمعنى أنه مقصود به نفع الآخرين وفي بعض الأحيان تكلف فاعليها ثمناً غالياً . ولكن حتى مثل هذه الأفعال أنانية بمعنى أن الدافع إليها هو إرضاء الذات . أننا غيريون (نحب الغير) إننا بالفطرة أو بالتعليم والمران يمكن أن نجد لذة كبيرة في إدخال السرور على الآخرين وإسعادهم . وهكذا قد تضحي الأم من أجل طفلها أو البطل من أجل وطنه . إننا إذ نفعل الخير لغيرنا فذلك يرجع إلى أننا عن قصد أو عن غير قصد نتذكر في لذة وسرور ما قوبلت به مثل هذه الأفعال في الماضي من حب أو تقدير اجتماعي . وهذه الطريقة قد تصبح بعض الأفعال الغيرية عادة لدينا ، وقد نشعر بالانزعاج أو الخوف إذ لم نقم بها . وقد يبدو النسك أو التبتل الديني عملاً فاضلاً إلى درجة عالية ، ولكنه « مجرد استثمار طويل الأجل في سندات السماء » أي مجرد محاولة طويلة الأمد لضمان حسن الجزاء في السماء

« فإذا فرض ناسك أو راهب على نفسه قانون الصمت وجلد نفسه بالسوط في كل ليلة وعاش على الحبوب والماء وافترش الأرض على القش فإنه يظن أنه بفضل النحول والهزال سيحظى بمنزلة رفيعة في الجنة^(٤٣). وإذا لم يحكم المجتمع المحلي على أى تصرف أو فعل وحشي قاس بالإدانة ويستنكره فإن هؤلاء الرجال المقدسين سيرتكبونه دون خجل أو لجوء إلى القانون ، مثال ذلك إحراقهم المهرطقين^(٤٤). إن الصداقة نفسها ضرب من الأنانية : فهي تبادل خدمات حتى ولو كانت مجرد تأييد ، وحيثما انقطع مثل هذا التبادل تقطعت أواصر هذه الصداقة ، وليس ثمة شيء إستثنائي أو غير مألوف أكثر من الصداقة التي لا تدوم طويلاً^(٤٥) ، وجوهر الحقيقة إننا دائماً نحن الذين نحب أنفسنا في غيرنا^(٤٦).

وحين هبط لاروشفوكول بالمثل بمختلف الدوافع إلى حب الذات فإنه شعر بالأسى باعتبار أن حب الذات هذا رذيلة . ولكن هلفشيوس ارتضاه على اعتباره فضيلة ، على أنه سعى للمحافظة على الذات . وعلى أية حال فتلك حقيقة عامة من حقائق الحياة « فالغضب أو الشعور بالضيق من الأفعال القائمة على حب الذات وهو مثل الشكوى من رنخات المطر في الربيع أو من حر الصيف ... أو صقيع الشتاء »^(٤٧). ومن منطلق عمومية حب الذات تماماً يقترح هلفشيوس إقامة أخلاقيات « علمية » . فالتعليم والتشريع يمكن أن يشكلا الأخلاق والعادات إلى حد الانزعاج والشعور بالقلق والضيق بالأفعال أو التصرفات غير الاجتماعية ، والشعور باللذة والسرور في الفضيلة - أى في الأفعال التي تفيد الجماعة وتسدى إليها خيراً . ويجدر بالفيلسوف أن يدرس السلوك الإنساني والحاجة الاجتماعية بقصد اكتشاف أى أشكال السلوك أكثر نفعاً وخيراً لأكبر عدد من الناس ، ويحاول مع المعلمين والمشرعين التماس المغريات والمخادير التي يمكن مع الاستعانة بحب الذات أن تشجع السلوك الاجتماعي ، وأية فوائد تعود على الجنس البشرى من مثل هذا الاتفاق بين

الفلاسفة والملوك؟» إن فضائل الشعب وسعادته لا تتبع من قدسية عقيدتهم الدينية ونقاوتها بل من حكمة قوانينهم^(٤٨).

وهكذا تحول هافشيوس في قمة فلسفته إلى دراسة التشريع والحكومة . أنه من الناحية السياسية أشد الفلاسفة تطرفاً . أنه لا يشارك فولتير إيمانه « بالحاكم المطلق المستنير » فان مثل هؤلاء الحكام قد ينزعون إلى إخماد أية آراء غير آرائهم هم أنفسهم ، التي قد تكون خاطئة ضارة . ويقتبس قول فردريك الأكبر لأكاديمية برلين « ليس ثمة ما هو أفضل من حكومة استبدادية يرأسها أمير عادل إنساني عطوف متمسك بالفضيلة ، وليس ثمة شيء أسوأ من حكم الملوك العاديين البسطاء »^(٤٩) . والملكية المحددة السلطة أو الدستورية مثل إنجلترا صالحة طيبة ، والأحسن منها اتحاد من جمهوريات ديمقراطية تعاهدت على العمل المشترك ضد أي ظالم^(٥٠) . والارستقراطية جائرة نظرياً حيث أن المقبرة العليا نتاج الصدفة ، ولكن الديمقراطية الكاملة غير مرغوب فيها ، ما دام الفقراء غير متعلمين لا يملكون شيئاً . ومن ثم فإن المشرع الحكيم يسعى إلى نشر التعليم وحسن توزيع الملكية .

إن هذا « المليونير » الحبير بشؤون المال يرثي لتركيز الثروة وتيسير هذا التركيز عن طريق الاقتصاد القائم على المال : « إن هذا الشقاء الذي نخيم على كل الناس والأمم تقريباً إنما ينشأ من قصور قوانينهم والتوزيع البعيد كل البعد عن المساواة لثرواتهم . وفي معظم الممالك توجد طبقتان فقط من المواطنين : واحدة في مسيس الحاجة إلى الضروريات والأخرى تبذر تبذيراً^(٥١) ... وإذا كان فساد السطة في الشعب أبرز ما يكون في عصور الترف والبدخ فما ذاك إلا لأن ثروة الأمة في تلك العصور كانت مركزة في أيدي أقل نفر من الناس^(٥٢) .

إن الاستعاضة بالمال أو النقود عن الأرض رمزاً للسلطة والقوة ونقطة ارتكاز لهما ، ينشأ عنها سباق على الثروة ، وفيه تفويض للاستقرار الاجتماعي وتصعيد للصراع الطبقي ، كما أنه يؤدي إلى تضخم مدمر . « وفي الأمة التي

تزداد تدريجاً ثروتها ومالها - وبخاصة العملة الورقية - ترتفع أسعار الحاجيات وأجور العمال باستمرار .. وكلما أصبح العمل غالى التكلفة فى أمة غنية فإنها لا بد أن تستورد من الأمم الأخرى أكثر مما تصدر إليها . وإذا ظلت كل العوامل الأخرى على حالها ... فإن أموال الأمة الغنية سوف تنتقل أو تتسرب دون أن يشعر بها أحد الى الأمة الأفقر التى ستدمر نفسها بدورها وبنفس الطريقة إذا أصبحت غنية (٥٣) .

وهل ثمة مهرب من تركيز الثروة أو التزاحم على المال ؟ « يجدر بالإنسان أن يضاعف عدد الملاك عن طريق توزيع جديد للأرض .. فإذا زادت أرض أحد الناس عن قدر معين من الأفدنة فيجب أن تفرض عليها ضرائب تفوق قيمة إيجارها . ومثل إعادة توزيع الأرض هذه قد تكون مستحيلة تقريباً فى اقتصاد يقوم على المال . ولكن إذا أمكن تداركها بحكمة فمن المستطاع تنفيذها بتغيرات دائمة غير محسوسة (٥٤) .

فلنعتمد إلى انقاص ثروة بعض الناس وزيادة ثروة آخرين ونهى الفقراء حالة من اليسر والرخاء حتى يتمكنوا بسبع أو ثمان ساعات من العمل فى اليوم أن يوفرُوا لأنفسهم ولذويهم وسائل العيش ويسدوا حاجتهم ، ومن ثم يصبح الشعب سعيداً بقدر ما تسمح به الطبيعة البشرية (٥٥) .

٣ - تأثير هلفشيوس :

وهنا فى كتابين لرجل واحد نجد كل الأفكار التى صنعت الثورة الفرنسية وكل الأفكار التى تعتلج فى صدور الأمم وتحركها اليوم . فلا عجب أن وضعت الفئات الفرنسية المتعلمة المثقفة فى الربع الثالث من القرن الثامن عشر هلفشيوس فى منزلة سواء تقريباً مع فولتير وروسو وديدرو ، ورحبت بكتابه الأول وهلمت له مما كاد لا يحظى به كتاب غيره فى ذلك العصر . وقال برونيتير « إن أى كتاب غيره لم يحدث مثل هذه الضجة فى زمانه ، ولم ينشر فى الخارج أفكاراً أكثر أخذت تشق طريقها إلى العالم بأسره (٥٦) .

وذكر بريسو في ١٧٧٥ «لقد منهج هلفشيوس وآراؤه أعظم رواج وشعبية»^{٥٧} وشكا تراجو على حين كان يعارض هذا المنهج من أن الناس امتدحوه وأثنوا عليه في شيء من الشدة والعنف : وقال آخر « إن هذا الكتاب كان يوجد على كل منضدة^(٥٧) . وأطرى كل النقاد وضوح أسلوبه وقوة حكمة وتصويراته البارعة والروح الإنسانية البارزة في رجل يدافع عن إعادة توزيع الثروة على حين أنه ثرى أوتى كل شيء .

ومهما يكن من شيء فإن الفلاسفة أنفسهم انتقدوا « منهج هلفشيوس » باعتباره قائما على مفاهيم خاطئة . ودافع فولتير عن دعاوى الوراثة . فكل الناس عند الميلاد ليسوا متساويين في التفوق الذهني والخلق الكامن ورأى أن العبقرية مولودة لا مصنوعة^(٥٨) . واتفق ديدرو مع فولتير فيما ذهب إليه . وفي « تنفيذ لكتاب هلفشيوس بعنوان « الإنسان » (كتب في ١٧٧٥ ، ولكن لم ينشر إلا بعد مائة عام من تأليفه) ، دفع ديدرو بأن الأحاسيس تنتقل بأشكال مختلفة إلى مختلف الأفراد بفعل الفوارق الموروثة في تركيب المخ وبنيته^(٥٩) « لا يولد الإنسان غفلا أو خاليا من كل شيء ، حقا أنه يولد بدون أفكار أو انفعالات موجهة ، ولكنه منذ اللحظة الأولى يوهب استعدادا أو ميلا إلى التصور والمقارنة والاحتفاظ ببعض الأفكار في تلمذ واستمتاع أكثر من غيرها . وميلا ونزعات مسيطرة تنتج عنها فيما بعد الانفعالات الواقعية^(٦٠)

وهنا نجد ديدو ، الذي كان قد بدأ بجون لوك بتحول إلى لينتز ويمد يده إلى كانت . أن تأثير البيئة والتعليم في نظر ديدرو ، محدود دائما بالوراثة « إننا لانستطيع أن نعطي ما رفضته الطبيعة ، وربما نقضى على ما تهبه الطبيعة .. إن التعليم يعمل على تحسين ما تهبه لنا^(٦١) واستاء من الهبوط بالمباهج الفكرية إلى لذة حسية ، واشترك في الاحتجاج العام على فكرة هلفشيوس التي تقول بأن كل الغيرية (حب الغير) أنانية غير محسوسة أو محتجبة .

وكانت مدام دي ديفان واحدة من النفر القليل الذين اتفقوا مع هلفشيوس في هذه النقطة . وقالت « إن هذا الرجل كشف الغطاء عن سر كل إنسان »^(٦٢) أما آدم سميث الذي كان يتبع صديقه هيوم فإنه أصر على أن الغيرية مؤسسة على مشاعر عطف فطرية مثل الأنانية سواء بسواء ، ولكنه في كتابه « ثروة الأمم » أسس نظريته الاقتصادية على شمولية حب الذات . وفي نشوة الثورة أثار هلفشيوس إشتمزاز مدام رولان . « لقد شعرت أنى مدفوعة بكرم لم يعترف هو به قط وواجهت نظرياته بالابطال العظام الذين نخلدهم التاريخ^(٦٣) .

ولا يمكن حل هذه المسائل بسهولة في فقرة من الفقرات ، ويبدو واضحا أن الاختلافات في التكوين الوراثي أو الخلقى تؤثر تأثيرا جوهريا في عمل البيئة والتعليم . وكيف إذن نفسر بأى شكل آخر الخلق والنمو المتباينين كل التباين في الإنحوة على الرغم من التشابه في النشأ والأصل والفرص ؟ ومع ذلك فإن هلفشيوس كان على حق ؟ في نطاق الحدود التي فرضتها البيئة ، فيمكن أن تحدث تغييرات جسيمة في سلوك الأفراد والجماعات بفعل الاختلافات في البيئة والتعليم والتشريع ، وإلا كيف نفسر إنتقال الانسان من الهمجية إلى المدنية ؟ وربما يجدر بنا أن نسلم لهلفشيوس بأنه ليس ثمة إنسان يعمل واعيا بطريقة أشد إيلاما من بديلتها . ولكن بعض الغرائز الاجتماعية - حب الأم ، حب العيش مع أبناء جنسه ، حب الاستحسان - على الرغم من أنها لا تقدر على منافسة غرائز النزعة الزردية في كمال القوة ، فإنها أى الغرائز الاجتماعية قوية إلى حد تستطيع معه توليد أفعال اجتماعية قبل أى ترجيح واع للذة أو الألم أو النتيجة . فكل منا ذات أو « أنا » ولكن بعض الذوات أو « الأنا » تتسع لتشمل أسرتنا أو جماعتنا أو ووطنا أو الجنس البشرى بأسره . وعلى هذا الأساس تكون أوسع « أنا » هي الأفضل .

وعلى أية حال فإن كثيراً من الناس تأثروا وتحركوا للتفكير والعمل بفضل إراء هلفشيوس . ومن الجائز أنه تحت تأثير هلفشيوس بدأ لاشالوتيه

حملته لابدال مدارس كهنة القرى وكليات الجزويث بطرق تعليمية تشرف عليها الدولة . وترجع المدارس العامة في أمريكا إلى مقترحات كوندرسيه الذي سمى نفسه تلميذ هلفشيوس ومريده^(٦٤) وأكد بكاريا Beccaria إن كتابات هلفشيوس هي التي أوحى بكتابة دفاعه التاريخي عن إصلاح قانون العقوبات والسياسة . وصرح بتنام بأنه « مدين لكتاب هلفشيوس » الذكاء « بكثير من أفكاره » - بما في ذلك مبدأ المنفعة بالتماس أعظم السعادة لأكبر عدد من الناس في الأخلاق وفي التعليم^(٦٥) . وشهد « الميثاق الوطني » في ١٧٩٢ بتقدير تأثير هلفشيوس في الثورة ، بأن منح بنات هلفشيوس لقب « بنات الأمة » . وبني وليم جودون Goduin بحثه في العدل السياسي « (١٧٩٣) على تعاليم هلفشيوس . أما زوجته ماري ولستونكرافت فقد وجهها إلى حد ما إلى تأليف كتابها المؤذن بعهد جديد « حقوق المرأة » ، دعوى هلفشيوس بأن الفوارق بين الجنسين ترجع إلى حد كبير إلى التفاوت في التعليم وفي الفرص^(٦٦) .

وقابل كثير من معاصري هلفشيوس بين نظريته في شمولية الأنانية وبين كرم خلقه وحياته الموسومة بالخير والإحسان . وكتبت عنه مارمونتيل : « ليس ثمة رجل أفضل منه ، فهو متحرر كريم جواد دون تظاهر أو تصنع ، محسن من صميم قلبه^(٦٧) ووصف جريم الذي نادراً ما كان مسرفاً في مدحه ، هلفشيوس بأنه « رجل مهذب وديع حقاً » منصف متسامح ، ليس سريع الغضب أبداً ، زوج صالح ووالد عطوف ، وصديق وفي وإنسان طيب^(٦٨) . وكان يصدق على شخصه ذلك الذي جاء في مؤلفه « الذكاء » « من أجل أن نحب الناس يجدر أن نتوقع القليل منهم . . . إن كل إنسان ما دامت أهواؤه وانفعالاته لا تغشى عقله سيكون أكثر تسامحاً كلما ازداد استنارة . . . فإذا كان الرجل العظيم هو دائماً أكثر تسامحاً . . . وإذا كان يقابل أخطاء الآخرين ببلمة الشافي ويتمهل في الكشف عن هذه الأخطاء ، فما ذاك إلا لأن سمو عقله لا يجزله أن

يطنب في ردائل أفراد بعينهم وحمقاتهم ، بل يحوم حول ردائل وحمقات الجنس البشرى بصفة عامة (٦٩) .

إنه في فوري وفي باريس عاش مع زوجته وأطفاله أنشودة الأخلاص والسعادة . وفي عام ١٧٦٤ تجول في إنجلترا وألمانيا . وقابل هيوم وجيبون وفرديريك الأكبر . وفي عام ١٧٧٠ أسهم في تكاليف التمثال الذي أقامه بيجال لفولتير . وفي ١٧٧١ فارق الحياة على فراشه مع دي هولياخ وغيره من الأصدقاء . ووفاء لذكراه رفضت أرملته كل من طلب يدها للزواج ، بما فيهم بنيامين فرنكلين . وعمرت بعد وفاة زوجها تسعاً وعشرين سنة . ومرت بعهد الثورة في سلام وأمان وقضت نحبها في عام ١٨٠٠ ، في سن الواحدة والثمانين .

٢ - فلاسفة مساعدون

في الثالث الأخير من القرن الثامن عشر إنضم حشد كبير من الفلاسفة الأقل شأنًا إلى الهجوم على المسيحية . وعملوا بكل الجهد والحماسة اللتين تميز بهما المسيحيون الأوائل في نشر الانجيل والدين الجديد ، أو المسيحيون الأسبان في طرد العرب من بلادهم ، ودبجوا فيضاً من المقالات والرسائل . ولما نصب معينهم عمدوا إلى ترجمة كل ما وصلت إليه أيديهم من الكتب المناهضة للدين ، من لوكريشيس إلى هوبز وابتدعوا تقويماً جديداً للقديسين والشهداء ، وضموا إلى قائمة القديسين جوليان المرتد وآلوا بومبوناتري وبرونو وكامبانلا وفانيني وبيل وغيرهم من ضحايا الاضطهاد وأدانوا بني إسرائيل لأنهم تقاضوا فوائد على القروض بل لأنهم أنجبوا المسيحية . وأنزلوا « يهوه » عن عرشه باعتباره أقوى رمز للقسوة والوحشية ، وإلهاً للحرب ، وأول من عمد إلى الإبادة الجماعية . وسخروا من الخطيئة الأولى ومن « الآب » الذي كان عليه أن ينزل إلى الأرض مثل ابنه ويضرب بالسياط ويصلب لهدئ من غضبه وهو الآب « الذي أثارت امرأة

فضوله للفاكهة (التفاح) أو المعرفة . ودمغوا الحروب الصليبية بأنها حملة لاغتصاب الأرض واحتكار التجارة ، واحتقروا العصور الوسطى باعتبارها عصوراً مظلمة ، ونظروا بازدراء إلى الكاتدرائية القوطية على أنها وحشية بشعة . ولحظ عليه دالمبير « قدرا من التسامى بالأفكار وقلقا واهتياجاً وفورانا عاماً في الأذهان اكتسح منه بشيء من العنف كل ما وقف في طريقه » (٧٠).

وكان هناك جاك أندريه نجيون Noigeon الذي وصفه سانت بييف بأنه « شماس » متعصب للحاد (٧١) أنه عاش وعمل مع دي هولباخ مترجماً وقوراً، ونشراً معاً على مدى عشر سنين ثلاثين كتاباً صغيراً أو كبيراً أصلاً أو مستورداً، وكلها ضد المسيحية . وقال عنها ديدرو « إنها قنابل تتساقط كالطرر في بيت الرب (٧٢) . كما كان هناك نيقولا بولانجيه ، وهو أيضاً أحد أصدقاء دي هولباخ . واشترك في هذه الحملة على المسيحية حتى وفاته (١٧٥٩) وخلف وراءه مخطوطة عنوانها « إمارة اللثام عن عهد قديم » احتفظ بها دي هولباخ حتى عام ١٧٦٥ حين أصبح شوازيل على رأس الوزارة وكان صديقاً لجماعة الفلاسفة . وعندئذ دفع بها إلى المطبعة مع مقدمة مثيرة بقلم ديدرو . يقول بولانجيه : « أن الديانة نشأت من خلال مخاوف الإنسان البدائي من الفيضانات وغيرها من الكوارث الواضح أنها نخرقة للطبيعة ونظمها (أي الديانة) ، أقامها قسيسون وملوك في مؤامرة لتبرير الطغيان في سبيل فرض جائر لعقيدة تقليدية ، ولن يجد الجنس البشري مطلقاً مهرباً من هذه المؤامرة الشريرة إلا باتباع نور العقل تحدياً للقساوسة والماوك (٧٣) .

وأهم من هذا كان أندريه موريليه . وهو نتاج آخر لليسوعيين وراهب آخر تدرج في مراتب المتمردين . ولد في ١٧٢٧ وعاش طويلاً حتى وصفته مدام نكر بأنه « دب » وعلى الرغم من ذلك أوتي من الصراحة والاختلاص والاستقامة بالإضافة إلى ألف من الصفات الحسنة وقدر كاف من الدين

ما يجعله يرتاب في وجود إله . ويصرح أحيانا بذلك إلى أصدقائه اعتماداً منه على حكمتهم في أنهم لن يفضحوا سداجته وسرعة تصديقه^(٧٤) . وكتب تحت إشراف ديدرو بعض المقالات لدائرة المعارف . وعلى مائدة العشاء لدى هولباخ كانت سخريته لأذعة حتى أن فولتير أسماه « الأب الموقر السيد عضهم لإنهشهم » ولكن قال عنه ما رمونتيل « أنه كان لديه أفكار عميقة ... وكان قويم الخلق كما كان ثابت الجنان »^(٧٥) . وفي ١٧٦٢ نشر « كتيباً عن أعضاء محاكم التفتيش » عبارة عن مختارات من « إدارة محاكم التفتيش » لنقولا أميريكو الذي قد عمل في حماسة وغيره محققاً وعضوا هاماً في محاكم التفتيش من ١٣٥٦ إلى ١٣٩٩ . وكان الفرنسيون قد نسوا تقريباً محاكم التفتيش الأسبانية ولكن موريليه أعادها إلى ذاكرتهم بمجرد إقتباس اجراءات هذا النظام وعقوباته في أوج عظمته . ومنح مالشرب موريليه ترخيصاً حكومياً بطبع الكتاب قائلًا أن قانون العقوبات الفرنسي كان لا يزال من الوجهة العملية مطابقاً لقانون محاكم التفتيش^(٧٦) . وكاد موريليه إلا يصدق هذا ، ولكن في السنة التي رأى فيها الكتاب طريقه إلى المطبعة وجد برلمان تولوز يقضى على جان كالا Calas في آلة التعذيب .

وذكر جريم الرزين الرصين عادة عن رأهب آخر هو جوبوم رينال Raynal في صحيفته « كورسبندانس » عن ١٧٧٢ « منذ صدور كتاب مونتسكيو روح القوانين ربما لم يظهر في أدبنا كتاب أجدر بالانتقال إلى أبعاد الأعتاب والأجيال القادمة أو الرفع من شأن تقدم الاستنارة لدينا من كتاب رينال « التاريخ الفلسفي والسياسي للمستعمرات والتجارة الأوربية في جزر الهند الشرقية والغربية^(٧٧) » وربما كان جريم يتخذ بصفة خاصة موقفاً ودياً من المؤلف لأن رينال هو الذي أفتتح في ١٧٥٣ وأوصى في ١٧٥٥ بصحيفة الكورسبندانس الأدبية لجريم ، وعليها عاش جريم . وأكثر من هذا فإن ديدرو صديق جريم كان قد عاون في إعداد كتاب رينال الخالد الذي لا يفتح ولا يقرأ في أيامنا هذه أو يبدو أن رأى جريم أكده ما نال

الكتاب سالف الذكر « التاريخ الفلسفي والسياسي » على الفوز من شعبية
فبيعت منه أربعون طبعة قبل ١٧٨٩ عدا طبعات لا تحصى مسروقة أو مترجمة
وحظي الكتاب بتقدير فوانكاين وجييون وروبرتسون . وأوحى هذا الكتاب
إلى توسان لوفرتير Toussain L, Boaverturn بحملته المخصصة لتحرير العبيد
(١٧٩١) ، وذهب ناقد واسع الإطلاع إلى أنه كان لهذا الكتاب تأثير على
الثورة الفرنسية أعظم حتى من تأثير كتاب روسو « العقد الاجتماعي »^(٧٨) .

دخل رينال باريس قسيساً فقيراً . وتكشف أسطورة عن طبيعة المرح
والأبتهاج عند المتمردين ، فتنسب نجاحه من الموت جوعاً إلى أن الراهب
بريفوست كان قد تلقى عشرين سو (عملة فرنسية قديمة قيمتها خمسة سنتيمات)
ليقيم قداساً على روح أحد الموتى ، وأن بريفرست أعطى الراهب دى
لا بورت ١٥ سو ليقيم القداس بدلا منه ، وأن هذا الراهب الأخير نفح رينال
ثمانية فقط ليقيم القداس بدلا منه^(٧٩) . وابتهج رينال بالأكل على موائد
هلفشيوس ودى هو لباخ ، وأثبت أنه جليس أنيس . ويبدو أنه حظى بمعونة
كثير من المؤلفين فضلا عن ديديرو في جمع مادة كتابه ، بل حتى في تأليف
بعض فصوله . أن روسو الذي تشاجر وتنازع مع كل الناس بلا استثناء وجد
رينال مسالما غير مشاكس ، وقدم له الشكر في « إعرافاته » على وفائه بحق
الصداقة وتقديره للمساعدة المالية^(٨٠) .

ولأبد أن رينال قد جمع مالا بطريقة ما ، حيث قيل إنه رشا الرقيب
للحصول على ترخيص بأصدار كتابه^(٨١) . أنه قضى عشرين عاماً يعمل جاهداً
في إعداده ، وفصل القول تفصيلاً في جشع الأوربيين وخيانتهم وعنهم في
معاملة السكان الأصليين في جزر الهند الشرقية ، واستنكر هذا كله
وحذر الرجل الأبيض من الانتقام الرهيب الذي قد تعمد إليه الأجناس الملونة
إذا عادت إليها السلطة^(٨٢) . وكان الكتاب أول اتهام فرنسي للاستغلال
الاستعماري ، كما كان من أوائل الكتب التي أكدت على أهمية التجارة في
تحديد التاريخ الحديث ، وأسهم بطريقة عابرة في إضفاء المثالية على المواطنين

الهنود وإعجاب المتحررين الأوربيين بحضارة الصين . وزخرت المجلدات المسهبة بالموضوعات والأفكار الرئيسية في عصر الاستنارة : مقت الخرافة وحرفة الكهانة وبغض تسلط الدولة والكنيسة على الحياة والفكر . وأيد رينال فكرة أن الكاثوليكية كانت خداعا أو دجلا جمع فيه الحكام والكهنة قواهم ليدعم كل فريق منهم الآخر عن طريق الأساطير والخرافات والمعجزات والدعاية والظلم والمذابح . وأهاب بحكام أوربا أن يحلوا انفسهم من أى ارتباط بالكنيسة ، ويسمحوا بحرية الكلام والنشر ، ويمهدوا الطريق للحكومة الديمقراطية . ولم تنج البروتستانتية منه ، حيث قال أنها كذلك ارتكبت جريمة التعصب . ووصف تعصب البيوريتانيين في إنجلترا الجديدة واضطهاد السحرة في سالم Salem (مدينة في ماساتشوست) .

وعلى الرغم من الوقت الطويل الذى قضاه رينال في إعداد كتابه ، فإنه قضى عليه بالأهمال في زوايا النسيان نتيجة لما ورد فيه من أخطاء . إنه لم يتمحرف الحقائق فأعتبر الأساطير تاريخا ، وأهمل تواريخ الأحداث ، ولم يورد أسماء المراجع الموثوقة ، وشوش المادة وأفسدها ، واستخدم ديدرو (أو سمح لديدرو أن يشغل نفسه في كتابة الخطب المسرفة والنداءات العاطفية مما لا يكاد يليق بمؤلف في التاريخ ولكن هذه لم تكن عصور مجردة أو نزاهة ، فالكتاب كان سلاحا ، ولا يجوز أضعاف قوته بعرض الجوانب المتعارضة فإن الحرب كانت حربا وصراعا . وهكذا قدرت الحكومة الفرنسية فأصدر برلمان باريس أمرا بأحراق الكتاب ، كما صدر الأمر إلى رينال بمغادرة فرنسا ، فهوب إلى الأراضى الوطيئة ، ولكنه رأى ضمانا للأمن والسلامة أن يعود في عام ١٧٨٤ في عهد أكثر ملوك البوربون اعتدالا .

وكان رينال من الفلاسفة للقلائل الذين شهدوا الثورة الفرنسية وعمرها بعدها ، ورأى عنف الثورة واستخدامها لكل وسائل التعصب وعدم التسامح القديمة . وفي ٣١ مايو ١٧٩١ وهو في سن الثامنة والسبعين وجه إلى الجمعية التأسيسية رسالة يحذرها من التطرف ، فكتب يقول « لقد تجرأت لأمد طويل

على تنبيه الملوك إلى واجباتهم ، فاسمحوالى اليوم أن أنبه الشعب إلى أخطائه «
فأشار إلى أن طغيان الأهالى قد يكون قاسيا وجائرا قدر طغيان الملوك
وجورهم . ودافع عن حق رجال الدين فى التبشير بعقيدتهم ، مادام
معارضوهم يتركون أحراراً فى التعبير عن آرائهم . واحتج على القوانين
التي تفرض دين دولة ما وعلى إعتداء الجماهير على المساواة . وأغرى
روبسبير الجمعية بالسماح للرجل العجوز بتفادى المقصاة ، ولكن الحكومة
صادرت ممتلكات رينال ومات فقيراً بعدما (١٧٩٦) وسط إنتصارات
الثورة وارهباها .

٣ - دى هولباخ

١ - الملحد اللطيف :

كان أحب جماعة الفلاسفة إلى باريس ألمانى ولد (١٧٣٣) فى اديشيم
فى أمارة سبير Speyer الأسقفية (فى بافاريا) وعمد باسم بول هنريخ
ديتريش فون هولباخ ، ونشأ كاثوليكياً . وجمع جده ثروة من إدخال عرق
الذهب من هولند إلى فرساي . وفى ليدن درس بول العلوم وتعلم اللغة
الانجليزية . وبعد صلح أكس لأشبلى (١٧٤٨) إستقر به المقام فى باريس
وأصبح من رعايا فرنسا وتزوج من أسرة من خبراء المال ، وحصل على
النبالة بأستثماره ١١٠,٠٠٠ جنيه بفائدة ٥ ٪ فى شركة سكرتيرى الملك .
« وسماه المحيطون به « البارون » لأنه كان يمتلك فى وستفاليا ضيعة تدر عليه
ستين ألف جنيه سنوياً . وبلغت جملة دخله السنوى مائتى ألف جنيه .
ويقول موريليه أنها ثروة لم يستغلها أحد استغلالاً أشرف ولا أنفع منه للعلم
والفن^(٨٣) وكان يرعى موريفو وغيره من الكتاب أحسن رعاية (مثل دور
ما سيناس بالنسبة لهم ، وهوراعى هوراس وفرجيل فى القرن الأول ق . م)
وجمع مكتبة ضخمة ولوحات ورسومات وعينات ونماذج للتاريخ الطبيعى .

وأصبحت داره كما وصفها أحد الظرفاء « مقهى أوروبا » وجعلت منه

ولأثم العشاء عنده وصالونه في باريس أو في داره الريفية « جراند فال » على حد تعبير هوراس وولبول « قهرمان الفلسفه » وأعدت مدام دي هولباخ كل يوم خميس ويوم أحد المائدة لاثنى عشر ضيفا . ولم يكونوا هم أنفسهم دائما في كل مرة ، ولكنهم كانوا على الأغلب من قادة الحرب ضد المسيحية : ديدرو ، هلفشيوس ، دامبير ، رينال ، بولانجيه ، موريليه ، سانت لامبرت ، مارمونتيل ، وأحيانا بيغون ، ترجو ، وكني ، كذلك جاء روسو ولكنه كان يرتاع للالحاد الذي يتدفق من حوله ، وهناك كان ديدرو في ذروة الحماسة والعنف ، أما الراهب جالباني فقد ابتعد عن الفلسفة حيث أفسد النظرية بالدعابة والسخرية . وكان عقد هذا الكنيس - كما كان البارون يسمى هذه الاجتماعات - يلتئم في الساعة الثانية يتجادبون أطراف الحديث ويأكلون ويتحدثون حتى الساعة السابعة أو الثامنة . وتلك كانت الأيام التي كانت فيها المناقشة إديبا غير مسطور وليس ثمة فوضى المقاطعة أو توافه الأمور . ولم يكن هناك موضوعات محظور الخوض فيها ، أو كما قال موريليه « هذا هو المكان الذي تستمع فيه إلى أكثر المناقشة حرية وحيوية وتنويراً وتثقيفا بالنسبة للفلسفة والدين والحكومة ، ولم يكن للهزل أو المزاح الخفيف مجال هناك . . . وهناك فوق كل شيء أنار ديدرو عقولنا وأهلب نفوسنا (٨٤) وذكر ديدرو نفسه للآنسة فوللان أنهم تحدثوا في الفن والشعر وفلسفة الحب وفكرة الخلود ، كما تحدثوا عن الإنسان والآلهة والملوك والفضاء والزمن وعن الموت والحياة (٨٥) . وقال مارمونتيل « ظننت أحيانا أنني أستمع إلى تلاميذ فيثاغورس وأفلاطون (٨٦) . أو « إذا كان الطمس جميلا أستبدلنا بولأثم العشاء أحيانا نزهات فلسفية سيراً على الأقدام على ضفاف السين ، وكانت وجبة الطعام آنذاك أكلة سمك ضخمة ، وكنا نذهب كل منا بدوره إلى أشهر الأماكن بهذا السمك ، وعادة إلى سان كلو ، وكنا نقصد مبكرين في أحد القوارب لنستنشق نسيم النهر ونعود في المساء عن طريق غابة بولونيا (٨٧) .

ويبلغ صالون دي هولباخ من الشهرة حدا استخدم معه بعض زوار

باريس من الأجانب نفوذهم للحصول على دعوة ليحضروا هذه اللقاءات .
ومن ثم جاء في أوقات مختلفة هيوم وستيرن وجاريك وهوراس وولبول
وفرانكلين وبريستلي وآدم سميث وبكاريا . وقد أزعجهم في بعض الأحيان
وجود هذا العديد من الملحدين هناك . وكم من مرة سمعنا ديدرو يقول
(لروميلي) أنه حين كان هيوم يشاك في الوجود الفعلي للملحدين كان
البارون يؤكد له « أنك تجلس إلى المائدة مع سبعة عشر^(٨٨) . » وروى جيبون
أن فلاسفة باريس « سخروا من تشكك هيوم الموسوم بالحذر ، وبشروا
بتعاليم ومعتقدات الملحدين مع نفس التعصب الأعمى لدى الدوجماتيين
(الدوجماتية أى الجزمية : توكيد الرأي بغطرسة دون مبرر وتمحيص كافيين
وصبوا اللعنات على المؤمنين في تسخيف وازدراء .^(٨٩) » كذلك روى بريستلي
أن « كل الفلاسفة الذين تعرفت بهم في باريس كانوا لا يؤمنون بالمسيحية
بل صرحوا بأنهم ملحدون^(٩٠) ومهما يكن من أمر فان موريليه لحظ « أن
عدداً كبيراً منا كانوا ملحدين ولم يخجلوا من ذلك . ودافعنا بشدة عن انفسنا
ضد الملحدين ، على الرغم من إننا أحببناهم لحسن رفقتهم وصحبتهم .^(٩١)
ورأى ووليول أن « وكر الفلاسفة » لدى دي هولباخ يؤذى ذوقه الانجليزي .
وما كان أشد امتعاضه حين رأى رينال يعرف عن تجارة انجلترا ومستعمراتها
أكثر مما يعرف هو إلى حد أنه ادعى الصمم . أما بيان هيوم فكان فيه
معاملة بالغة ، أن رجال الأدب هنا (في باريس) مقبولون يرتاح المرء إلى
معاشرتهم ، وكلهم رجال ذوو شهرة واسعة يعيشون في انسجام تام (أويكاد
يكون تاما) بينهم جميعا ، ولا تشوب اخلاقهم شائبة ، وقد يكون مبعث
أعظم الرضا عندك إلا يكون بينهم ربوبي وأحد .^(٩٢) والارجح أن هذا
التصريح يدعو إلى الحيرة والأرتباك .

ولكن اتفق رأى الجميع على أن البارون وقرينته كانا مضيفين مثاليين
وشخصيتين محبتين إلى النفوس . وعلى حد تعبير جريم : عاشت مدام
دي هولباخ لزوجها فقط ، فكانت إذا فرغت من الترحيب بضيوف

زوجها وتقديم ما لذ وطاب لهم آوت إلى ركن منعزل وانصرفت إلى شغل الأبرة ، دون أن تشترك في مناقشاتهم،^(٩٣) وماتت في عام ١٧٥٤ في ريعان شبابها وظل دي هولباخ لبعض الوقت يعاني بأسا تاما^(٩٤) وبعد عامين تزوج من اختها التي اثبتت أنها مخلصه قدر اخلاص اختها . وكان متواضعا في سلوكه وعاداته وديعا في مناقشته ، لا تعلم شماله ما فعلت يمينه من بر وإحسان،^(٩٥) حتى لم يكذ أحد يرتاب في أنه كتب مثل هذا الدفاع القوي عن الالحاد في كتابه « نهج الطبيعة » فكتبت مدام جيوفرين منافسته في عقد الندوات وإقامة المآدب في صالونها : « لم أر قط رجلا في غاية البساطة مثله ،^(٩٦) أما روسو الذي درج على كراهية كل جماعة الفلاسفة تقريبا فإنه احتفظ باعجاب به بشخصية دي هولباخ وخلقته إلى حد أنه اتخذه نموذجا لفولمار الفاضل الذي يعتنق مذهب الأدرية في رواية « هلمواز الجديدة » . وكتب جريم الذي حلل كل إنسان فيما عدا روسو في موضوعية رصينة :

« كان طبيعيا أن يؤمن البارون دي هولباخ بأمبراطورية العقل ، فقد كان هواه ، (ونحن دائما نحكم على غيرنا بمقدار عواطفنا) أن يضع الفضيلة والمبادئ القويمة في المقام الأول وكان من العسير عليه أن يضمم الكراهية لاي من الناس ، ومع ذلك كان لا يستطيع دون جهد جهيد أن يخفي مقتته الصريح لرجال الدين ... فكلما تحدث عنهم تخلى عنه خلقه الرضى بطبيعته »^(٩٧) .

ومن هنا ساند دي هولباخ « دائرة المعارف » أكبر مساندة وأسهم فيها بماله ومقالاته . وطمأن ديدرو وشجعه حتى حين تخلى دالمير وفولتير عن المشروع ، وكانت مقالاته في معظمها عن العلوم الطبيعية ، فإنه من الجائز أن البارون كان في هذا الحقل أوسع الفلاسفة اطلاعا . وكتب جريم في ١٧٨٩ . « لم التق قط برجل أكثر منه علما واطلاعا ، ولم أر قط رجلا أقل منه اهتماما بالتظاهر بالعلم في أعين الناس ».^(٩٨) وترجم عن الألمانية كثيرا من الرسائل العلمية بمساعدة نيجيون ، ومن أجل هذا عين عضوا في أكاديمية براين وبطرسبرج ، ولم يحاول قط أن يلتحق بالأكاديمية الفرنسية .

وأفتن دى هولباخ بالعلم وتوقع من ورائه نهوضاً سريعاً بحياة الإنسان ،
ومن ثم فإن البارون نظر نظرة عدائية بالغة العداوة إلى الكنيسة التي بدا أن
سيطرتها على التعليم تسد الطريق أمام المعرفة العلمية ، فانتهاز كل فرصة لمهاجمة
رجال الدين فكتب مقالتي « آباء الكنيسة » و « الحكومة الدينية » للدائرة
المعارف . فند ١٧٦٦ فصاعداً نظم مع نيجبون مصنعا حقيقيا لاجراج
الأدب المعادي للكنيسة . ثم ظهر في تعاقب سريع « قائمة القديسين » ،
« والوقفة المقدسة » و « آباء الكنيسة بغير قناع » و « القساوة الدينية وتحطيم
الجحيم » وهنا جاء البشير بأنباء سارة - القضاء على الجحيم .

وفي ١٧٦١ صدر عن هذا الذي أطلق عليه بعضهم معمل الأبحاث كتاب
عنوانه « المسيحية في خطر » كتبه أساساً دى هولباخ ، ولكنه نسب في
صحيفة العنوان إلى بولانجيه الراحل . وبسبب بيع هذا الكتاب أتهم ووصم
بالعار أحد الباعة الجائلين وعوقب بالتجديف في السفن الشراعية لمدة خمس
سنين . ولقي مثل هذا الجزاء لمدة تسع سنين غلام إشتري هذا الكتاب ليبيعه
ثانية .^(٩٩) وكان الكتاب هجوماً مباشراً على التحالف بين الكنيسة والدولة
كما أنه إستبق حقاً وصف ماركس للديانة بأنها « أفبون الشعوب » .

« إن الديانة هي فن تخدير الناس بالحماسة (وفي القرن الثامن عشر
كانت هذه اللفظة تعنى الغيرة الدينية) لتحويل بينهم وبين مناهضة المساوىء
والمظالم التي يعانونها من حكامهم . ولم يعد فن الحكم إلا مجرد الإفادة من
أخطاء وخمول الذهن والنفس ، وهي ما غرقت فيه الأمم بفعل الخرافة . . .
وبتهديد الناس بالقوى الخفية استطاعت الكنيسة والدولة أن تفرضوا على الناس
أن يعانون ويحتملوا في صمت ما يلقون من عنت وشقاء من القوى المرثية ،
وفرض عليهم أن يأملوا في السعادة في الحياة الآخرة إذا وافقوا على أن يكونوا
بائسين في هذه الحياة الدنيا»^(١٠٠) .

ورأى دى هولباخ في إتحاد الكنيسة والدولة السيئة الجوهرية أو الشر
الأساسي في فرنسا . « أنى بوصنى مواطناً أهاجم الديانة لأنها تبدولى ضارة

بسعادة الدولة معادية للعقل البشرى ومناقضة للفضيلة الحقة أو الخلق القويم» (١٠١).

« إن المسيحي يلتن ، بدلا من الفضيلة والأخلاق القويمة ، الخرافات لحارقة القائمة على المعجزات والمبادئ والتعاليم البعيدة عن التصديق لديانة تتنافى تماما مع العقل السليم . إن هذا المسيحي منذ أول لحظة في دراسته يتعلم إلا يثق فيما تشهد به حواسه وإن يخضع عقله ويعتمد اعتمادا أعمى على ما يقرره أستاذه . إن أوائلك الدين حرروا أنفسهم من هذه الأفكار يجدون أنهم عاجزون لأحول لهم ولا قوة أمام الأخطاء التي رضعوها مع ألبان إلهاتهم» (١٠٢).

ودفع دى هولباخ بأن بناء الفضيلة والأخلاق على المعتقدات الدينية عمل فيه مجازفة ومخاطرة ، لأن هذه المعتقدات عرضة للتغيير وقد يدمر إلهيارها القانون الأخلاقي القائم على أساسها أو المتفق معها .

« إن كل من يكتشف ضعف أوزيف البيئات التي قامت عليها ديانته . . . لأبد يميل إلى الاعتقاد بأن الفضيلة والأخلاق وهمية مثل الدين الذي قامت عليه . وهذا يوضح كيف أن لفظتي « كافر وندايح » أصبحتا مترادفتين ، ولن يكون ثمة ضرر من تعليم أخلاق طبيعية بدلا من أخلاق لاهوتية ، وبدلا من تحريم الزنى والجرائم والردائل لأن الله والدين حرماها ، يجدر بنا القول بأن كل إفراط يؤذى الإنسان ويحول دون صيانتته والأبناء عليه ويجعله جديرا بالأزدراء في أعين المجتمع وهو كذلك إفراط يحرمه العقل وتحرمه الطبيعة التي تريد للإنسان أن يعمل من أجل سعادته الدائمة» (١٠٣).

وأنه لمن العسير أن نفهم كيف أن رجلا نعم بمثل هذا الثراء يجد فسحة من الوقت ليؤلف مثل هذا العدد الكبير من الكتب أو يبحث على تأليفها . وفي ١٧٦٧ أخرج « اللاهوت السهل الحمل Theologie portative سخر فيه سخرية بالغة من المبادئ السخيفة ، وأجمل كل اللاهوت في رغبة الكنيسة في التسلط والسيطرة . وفي ١٧٦٨ نشر « العدوى المقدسة أو التاريخ

الطبيعي للخرافة « متظاهرا بترجمته عن « جان ترنشارد الانجليزى » . وفي نفس العام أصدر « رسائل إلى أوجيني » أو الضمانة ضد الآراء المسبقة (دون تمحيض) والمزعوم أنه بقلم فيلسوف ابيقورى فى سكو Sceaux . وفى ١٧٦٩ صدر « بحث فى الآراء المسبقة » من تأليف مسيو دى مارسى Marsais . يوضح أن العلاج الوحيد لمساوىء الدين هو نشر التعليم والفلسفة . وفى ١٧٧٠ نشر البارون النشط تحفته الرائعة ، وهو أقوى كتاب فذ صدر فى الحملة ضد المسيحية .

٢ - منهج الطبيعة :

كان المزعوم أن كتاب منهج الطبيعة أو قانون العالم المادى والعالم المعنوى طبع فى لندن . ولسكنه طبع فى الواقع فى أمستردام فى مجلدين كبيرين يحمل أسم مسيوميرابو Mirabaud وكأنه المؤلف . وهذا الرجل الذى كان قد فارق الحياة منذ عشر سنوات كان سكرتير الأكاديمية الفرنسية . وجاء فى المقدمة عرض لتاريخ حياته ومؤلفاته ولم يصدق أحد أن الرجل الطيب المثالى ميرايود ألف مثل هذا الكتاب الخزى .

وفى ١٧٧٠ بعد أن قررت جمعية رجال الدين التى تجتمع كل أربع سنوات منحة مالية للملك وأهابت به أن يمنع تداول المؤلفات المعادية للمسيحية ، والتى إنتشرت كثيراً فى فرنسا . فأصدر لويس الخامس عشر أوامره إلى النائب العام أن يتخذ الإجراءات فوراً . وشجب برلمان باريس سبعة كتب من بينها كتابا دى هولباخ « فضح أسرار المسيحية ومنهج الطبيعة » ، باعتبارها بعيدة عن التقوى ، مليئة بالتخريف ، محرصة على الفتنة ، نزاعة إلى القضاء على كل فكرة عن الالهية ، وإلى إثارة الشعب للتمرد على ديانته وحكومته ، والقضاء على كل مبادئ الأمن العام والأخلاق ، وصرف الناس عن واجب الطاعة والأذعان للمليكمهم . وكان يتبغى أحراق الكتب وأعتقال موافيا وعقابهم عقاباً صارماً . ويقول موريليه أن كثيراً

من الناس عرفوا أن دى هولباخ هو المؤلف وأنهم كتبوا السر لمدة عشرين عاماً . وظلت الندوة تعقد الاجتماعات . ودعت مدام دى هولباخ إلى بعضها كانون برجييه الذي كان لتوه قد تلقى معاشاً من رجال الكنيسة لمقالاته الرائعة التي كتبها دفاعاً عن الكنيسة الكاثوليكية . وارتاب كثير من الناس في أن ديدرو كتب بعض أجزاء من الكتاب ولكنه في جملته كان حسن الترتيب وحسن الأسلوب مما يستبعد أن يكون بقلم ديدرو ، ولكنه ربما أسهم فيه بالمناجاة المتألفة البليغة للطبيعة في آخر الكتاب . وعلى أية حال لم يشعر ديدرو بالأمن والطمأنينه في باريس ورأى من الحكمة أن يزور لا نجرز .

ووصل كتاب « منهج الطبيعة » مهرباً من هولنده ، وتهافت على شرائه جمهور كبير يشمل كما روى فولتير العلماء والباحثين والجهال والسيدات (١١٤) . وسر به ديدرو فقال « إن ما أحب هو فلسفة وأضحة محددة صريحة مثل تلك الموجودة في كتاب منهج الطبيعة ، والمؤلف ليس ملحداً في أى من الصفحات ، وهو ربوبي في بعضها ، وفلسفته تجري على نسق وأحد » . (١١٥) وهذا يختلف عن ديدرو كل الاختلاف . أن ما أحبه في الحقيقة هو أن دى هولباخ كان ملحداً في كل صفحات الكتاب . ومع ذلك فإن الكتاب كان مشرباً بروح تقارب التفاني الشديد أو الأخلاص الديني في سعادة المبرر . أن دى هولباخ رأى عالماً يسوده البؤس والشقاء . حيث يحكمه الملوك والقساوسة ومن ثم خلص إلى أن الناس سيكونون أسعد حالاً لو أنهم ولوا ظهورهم لرجال الدين والملوك واتبعوا رجال العلم والفلاسفة . وإن العبارات الأولى في الكتاب لتنبئ عن روحه وفكرته الرئيسية :

« إن مصدر شقاء الإنسان وبؤسه هو جهله بالطبيعة . إن إصراره على التمسك بالآراء الخاطئة العمياء التي تلقنها في طفولته . . . وما نتج عن ذلك من تحيز وهوى ضللا عقله وأفسد اذهنه . . يبدو أنهما قضيا عليه بالاستمرار على الخطأ . . أنه يستمد أسلوب تفكيره من الآخرين تحت مسئوليتهم ،

ثقة منه بهم ، وهم أنفسهم مخطئون ، أو أن لهم مصلحة في تضليله وخذاعه . ولازالة هذه الغشاوة وأخراجه من هذه المتاهة فإن الأمر يتطلب يداً حانية وحباً شديداً كما يقتضى أعظم الشجاعة التى لا يعترىها خوف ولا وجل وتصميماً أكيداً لا يكل ولا يمل ومن ثم يكون أهم واجب علينا أن نفتش عن الوسائل التى نقضى بها على الأوهام التى تضللنا وتخدعنا . وينبغى أن نفتش عن العلاج لهذه المساوىء فى الطبيعة نفسها . ففى وفرة مواردها وحدها يمكن أن نتوقع فى تعقل وجود الترياق الشافى من كل الشرور التى جلبتها علينا حماستنا الطاغية الموجهة أسوأ توجيه . لقد حان الوقت للبحث عن هذا العلاج ومواجهة هذه المساوىء فى شجاعة وفحص أسسها وتدقيق النظر فى مقوماتها . أن العقل بخبرته الهادية المخلصة ينبغى أن يقتلع من الجنود هذه الأهواء التى كان الجنس البشرى هو الفريسة الموحيدة لها لأمد طويل . ولنحاول أن نفرس فى الإنسان الشجاعة واحترام عقله مع حب لا يفتر للحقيقة ، بهدف أن يلتبس المشورة والرأى من خبرته ، فلا يعود العوبة لخيال توجهه السلطات توجيهها مضللاً . ويتعلم أن يبني أخلاقياته على الطبيعة وعلى حاجياته وعلى المنفعة الحقيقية للمجتمع ، ويتجرأ على أن يحب ذاته ، ويصبح كائناً فاضلاً عقلاً نياً . وفى هذه الحالة لأبد أن يكون سعيداً^(١٠٦) .

وبعد أن أنهى دى هواباخ من بيان برنامجه على هذا النحو تقدم فى ترتيب ونظام ليفند كل الكائنات والأعتبارات والأفكار الخارقة للطبيعة . ويحبذ الطبيعة بكل ما فيها من جمال وقسوة وتقييد وأمكانات ، وليختزل كل الحقيقة والواقع إلى مادة وحركة ، ويبنى على هذا الأساس المادى منهجاً للفضيلة والأخلاق ياهل أن يكون فى مقدوره أن يحول المتوحشين إلى مواطنين ، ويشكل الخلق الفردى والنظام الاجتماعى ويضفى سعادة معقوله على حياة مقرر لها الموت المحتوم .

إنه يبدأ ويختتم بالطبيعة ، ولكنه ينكر أية محاولات لتشخيصها أو تجسيدها .

إنه يحددها ويعرفها بأنها الكل الأعظم الذي ينتج من اجتماع المادة في مجموعات المختلفة . وهذا هو الأسم المحبب لدى دي هولباخ للكون ، فهو يعرف المادة في حرص وحذر بأنها بصفة عامة ، كل ما يؤثر على حواسنا بأي شكل كان « كل شيء في الكون في حركة دائبة . وجوهر المادة هو أن تعمل ، وإذا تأملناها في يقظه تامة لاكتشفنا أنه ليس شئمة جزء صغير فيها ينعم بسكون مطلق ، وكل ما يبدو لنا أنه ساكن لا يبقى ولو للحظة واحدة على نفس الحالة ، وكل الكائنات تتناسل وتتكاثر وتتناقص وتتفرق باستمرار . . . إن أشد الصخور صلابة تتصدع بدرجات متفاوتة أمام لمسات الهواء^(١٠٧) .

إن هذا الكل لا يقدم مجال تأملنا وتفكيرنا « إلا مجرد تعاقب ضخم متصل غير متقطع لأسباب ونتائج »^(١٠٨) . وكلما إزدادت معرفتنا وجدنا أبلغ دليل على أن الكون يعمل من خلال الأسباب الطبيعية وحدها . وقد يكون من العسير أن ندرك كيف « أن المادة الجامدة يمكن أن تكون فيها حياة » ولكن يكون من الأصعب أن تصدق أن الحياة خلق أو نتاج خاص لوجود خفي خارج عن الكون المادي . ومن العسير معرفة كيف يمكن أن تحس المادة أو تشعر ولكن سائر خواص المادة مثل « الجاذبية والمغناطيسية والمرونة والكهربية ، ليست ، أقل صعوبة في إدراكها وفهمها من الشعور أو الأحساس »^(١٠٩) .

والإنسان كذلك « كائن مادي صرف خاضع لنفس القوانين التي تحكم سائر العالم . وكيف يتسنى لجسم مادي وذهن غير مادي أن يتفاعل كل منهما مع الآخر ؟ أن « الروح » هي مجرد تنظيم الجسم ونشاطه ولا يمكن أن يكون له وجود مستقل . أن القول بأن الروح ستحس وتفكر وتنعم وتعاني بعد فناء الجسم مثل الزعم بأن الساعة التي تنقسم إلى ألف قطعة تستمر في دقائقها ساعة بعد ساعة ! . . . وتبين مرور الوقت^(١١٠) . إن مفهوم الذهن والجسم على أنهما وجودان غير ماديين عوق معالجتنا للأمراض

العقلية . وإذا اعتبرنا الذهن وظيفة من وظائف الجسم فاننا بذلك يمكن علم الطب من شفاء كثير من الأضطرابات العقلية بالقضاء على أسبابها الجثمانية^(١١١) (*) .

ومن حيث أن الذهن وظيفة من وظائف الجسم فإنه أى الذهن خاضع للقاعدة الكونية ، قاعدة الأسباب والنتائج الطبيعية . والفصل الحادى عشر من كتاب « منهج الطبيعة » أفصح وأبلغ دفاع عن مذهب الحتمية (الإيمان بالقضاء والقدر) فى مجال الفلسفة الفرنسية بأسرها .

« إن حياة الإنسان خط قضت عليه الطبيعة برسمه على سطح الأرض دون أن يكون لديه القدره على الانحراف عنه قيد أنملة . أنه ولد دون رضاه . أن كيانه أو تنظيمه لا يتوقف البتة على نفسه . إن الأفكار التى تخالجه تأتى قسراً لا طوعاً ، وعاداته واقفه تحت سيطرة الدين يحملونه على التخلي عنها . ويتعدل الإنسان ويتغير بلا انقطاع نتيجة أسباب وعمل مرثية أو خفية ليس له سلطان عليها ولا تحكم فيها ، وهى بالضرورة تنظم أسلوب وجوده وتصبغ تفكيره بصبغة معينة ، وتقرر طريقة تصرفه وأفعاله ، فهو طيب أو ردىء ، سعيد أو تعس ، عاقل أو أحمق ، متعقل أو غير متعقل دون أن يكون لإرادته دخل فى أى من هذه الحالات المختلفة^(١١٢) .

ويبدو أن هذه الحتمية تنطوى على الجبرية وعلى النقيض من معظم الفلاسفة يرتضى دى هولباخ هذا التضمين . . . إن حالة الكون فى أية لحظة تحددها حالته فى اللحظة السابقة ، وهذه حددتها سابقتها ، وهكذا دواليك فى الماضى ،

(*) يقول جون مورلى « إنها حقيقة تاريخية أكيدة أن العلاج العقلانى للمجانين والنظريه العقلانية لنوع معين من الاجرام ترجعان إلى رجال مثل بينل Pinel الذى درج على تعاليم مدرسة المذهب المادى فى القرن الثامن عشر . وكان من المتعذر بشكل واضح أن تم الإصلاحات العظيمة الانسانية فى هذا المجال قبل إضمحلال الأهوت بشكل حاسم^(١١٢) .

ومن ثم فإن أية لحظة في تاريخ الكون تعتبر محددة لأية لحظة في المستقبل .
أنى شئت أن الأخضاع الواضح للإنسان المتميز بكل العبقرية أو القديس بأى
مفهوم أو بكل التضرع والصلوات - لغاز بدائى ، لا يفت فى عضدى
هولباخ فإنه يتقبل مصيره فى كبرياء ابيقورية :

« إن الإنسان من عمل الطبيعة ، وهو يوجد فى الطبيعة ، خاضع
لقوانينها ، ولا يملك تخليص نفسه من هذه القوانين ، ولا يمكنه أن يخطو فيما
وراءها خطوة واحدة حتى فى فكره . ولذلك فإنه بدلا من البحث خارج
العالم . . . عن كائنات توفر له السعادة التى تنكرها عليه الطبيعة يجمل به
أن يدرس هذه الطبيعة ويعرف قوانينها ويتأمل فى قواها ويراعى القواعد
الثابتة التى تعمل بمقتضاها . فليطبق الإنسان كل ما يصل إليه على هئائه
هو ويخضع فى صمت لما تفرضه عليه من الحماية أو الوصاية التى ليس
فى مقدور أحد تبديلها أو تغييرها ، ويرضى مبهجا أن يتجاهل الأسباب
والعلل التى يحول بينه وبينها حجاب كثيف لا يمكن أختراقه ، ويستسلم دون
تدمر لقوانين الضرورة الكونية التى يستحيل عليه ادراكها إطلاقا . ولا تحرره
أبدا من تلك القوانين التى فرضت عليه بحكم ماهيته أو جوهره^(١١٤) .

وهل تبرر لنا هذه « الجبرية (أى الايمان بالقضاء والقدر) أن نخلص
إلى أنه لافائدة ترجى من وراء محاولتنا تفادى الشرور أو السيئات والأعمال
المخزية أو المرض ، وأن نكف عن بذل أية جهود ، أو عن الطموح
أو التطلع ، وأن ندع الأمور تجري فى أعنتها ؟ ويجب دى هولباخ بأنه
حتى هنا ليس لنا الخيرة من أمرنا ، فان الوراثة والبيئة هما اللتان قررتا
بالفعل أن نستسلم للدعة وعدم المبالاة ، أو أن نستجيب فى جد ونشاط
لمتطلبات الحياة وتحدياتها ، ويسبق دى هولباخ إلى الاعتراض على أن هذه
الجبرية - وهى تبدو كأنها تتغاضى عن الجريمة وتغتفرها - قد تزيد منها .
أن الجبرية لاتوحى بعدم معاقبة الجريمة بل إنها على النقيض من ذلك ستؤدى
بالشرع والمعلم والرأى العام أن يصنعوا بمقتضى القوانين أو الأخلاق عوائق

أفضل في سبيل إرتكاب الجرائم ، ويوفروا الدوافع والمغريات بالسلوك الاجتماعي القويم ، وهذه العوائق والدوافع والمغريات ستنضم إلى العوامل البيئية التي تشكل سلوك الإنسان . ولكن الجبرية لا تسوغ لنا إعتبار الجرائم وكل السلوك غير الاجتماعي اختلال توازن عقلياً يرجع إلى الوراثة والبيئة والظروف . ولذلك يجدر بنا أن نعالج مثل هذا السلوك كما نعالج المرض ، وأن نتخلى عن التعذيب والعقوبات البالغة الصرامة لأنها تزيد الهوة بين الفرد والمجتمع ، وتعود الناس على العنف والقسوة . أكثر مما تصرفهم عن إرتكاب الجرائم .

وليس في هذه الفلسفة بطبيعة الحال مكان للإله . إن مقتدى هولباخ الشديد لمذهب التوحيد (الإيمان بالله الواحد) وحده . بل للمذهب الربوبية ومذهب وحدة الوجود كذلك دعا معاصريه إلى أن يطلقوا عليه « العدو الشخصي لله سبحانه وتعالى »^(١١٥) . وإذا عدنا إلى الوراثة إلى البداية فإننا نجد دائماً إن الجهل والخوف خلقا الآلهة وزينهم الخيال أو الحماسة أو الخداع أو شره وهم وعيدهم الضعف ، وأبقت عليهم السداجة أحياء ، وأجلهم واحترمهم العرف والعادة ، وناصرهم الطغيان . . . ليخدم أغراضه^(١١٦) ويثير ضدهم كل الحجج القديمة . ويتحسس بعنف كما فعل هلفشيوس ضد مفهوم الأسفار المقدسة عن الإله^(١١٧) ولا يوحى إليه النظام والتناسق الرائعان للكون بأى « عقل أسمى » فإن هذا النظام وهذا التناسق يرجعان إلى أسباب طبيعية تعمل بطريقة ميكانيكية . ولا يتطلب الأمر أن نعزوها إلى أى إله يمكن أن يكون هو أدق على الفهم والتوضيح أكثر من العالم . والنظام والاختلال مثل الخير والشر والجمال والقبح كلها مفاهيم ذاتية (غير موضوعية) مستمدة من اللذة أو الألم الذي توفره لنا مدركاتنا الحسية . ولكن الإنسان ليس « مقياس كل شيء » وليس إشباع رغباته أو رضاؤه معياراً موضوعياً يمكن تطبيقه على الكون . إن الطبيعة تسير قدما دون إعتبار لما نراه نحن من أصغر نقطة في الفضاء حسنا أو سيئا ، قبيحا أو جميلا . ومن وجهة نظر الكل (م ١٠ - قصة الحضارة)

« ليس هناك ما يمكن أن يكون سيئا حقا ، فان الحشرة تأوى إلى ملجأ آمن في أطلال القصر الذى يسحق الناس عند سقوطه » (١١٨) وينبغى أن نتعلم أن نعتبر الطبيعة فى سموها وكوارثها محايدة بقدر سواء حياذآ يتسم برباط الجأش :

« إن كل ما قيل فى سياق هذا الكتاب يثبت بوضوح أن كل شىء قريب متناسب مع الطبيعة ، حيث لاتعمل فيها كل الكائنات إلا أن تتبع القوانين التى فرضت عليها كل حسب درجته أو طبيعته . إن الطبيعة توزع بنفس اليد ما يسمى نظاما وما يسمى اختلالا ، وما يسمى لذة وما يسمى ألما ، وقصارى القول أنها بمقتضى ضرورة وجودها تنشر الخير والشر . . . ولذلك يجدر بالإنسان ألا ليمتدح سخاءها أو يصب عليها جام غضبه وحقدته ، أو يتصور أن ضخبه وضجيجه أو تضرعاته وابتهالاته يمكن أن تغنى عنه من شىء أو تكبح جماح قوة الطبيعة الهائلة أو سلطانها العظيم وهى تعمل دوما وفق قوانين ثابتة . . . فاذا عانى الإنسان شيئا فلا يجوز له أن يلتمس علاجاً فى الأوهام التى يصدرها له خياله المستقيم ، بل يستمد من مخازن الطبيعة العلاجات التى تقدمها للشرور والمساوىء التى تبثليه بها ، ويفتش بين أحضانها عن المنتجات التى أنتجتها الطبيعة بنفسها (١١٩) .

ويقرب هولباخ من تقديم الإلة ثانية فى شكل « الطبيعة » ، وبعد أن يأخذ على نفسه ألا يشخصها أو يجسدها نراه يميل إلى تأليهها ، ويتحدث عن قدرتها وإرادتها وخطتها وسخائها ، ويرى فيها أفضل هاد ومرشد للإنسان ، ويجيز الديدرو (٢) أن يكتب لها مناجاة عزيزة وكأنها الفقرة الختامية لكتاب ضخم « أيتها الطبيعة ، ياسيدة كل الكائنات !! إن بناتك الفاتنات الجديرات بالتوقير والعبادة - الفضيلة والعقل والحقيقة - يبقين إلى لأيد معبوداتنا الوحيدات . إن إليك تتجه كل تسابح الجنس البشرى وينصب عليك ثناؤه ، وإليك يقدم كل ولائه وإجلاله ، وهكذا . ومثل هذه التقوى الموسومة بمذهب وحدة الوجود (القائل بأن الله والطبيعة شىء واحد وأن

الكون المادى والانسان ليسا إلا مظاهر للذات الإلهية) . هذه التقوى لا تكاد تنسق مع نظرة دى هولباخ إلى الطبيعة على أنها تنزل الخير والشر دون تحيز ، « إن الرياح والعواصف والزوابع والبراكين والحروب والطاعون والمرض والموت كلها ضرورية لمسيرتها الأبدية (وليس فى كل مكان) مثل حرارة الشمس الصحية المفيدة^(١٢٠) وهذا يذكرنا بإله كلفن الضنين بالجنة المسرف فى عذاب النار » .

إن دى هولباخ فى حالته النفسية المميزة ينكر لا مجرد فكرة الله . بل نفس لفظته إن لفظتى الإله ويخلق ... ينبغى أن تختفيا من لغة أولئك الذين يريدون التحدث بلغة مفهومة . إن هاتين اللفظتان مجردتان ابتدعهما الجهل . إنهما متعبدتان لإرضاء من تعوزهم الخبرة ، الحاملين والجنباء إلى الحد الذى لا يدرسون معه الطبيعة وأساليبها^(١٢١) . وأنه ليرفض الربوبية التى تنسجم مع الخرافة^(١٢٢) وتصنع من الاتحاد ديناً حقيقياً .

« إن صديق الجنس البشرى لا يمكن أن يكون صديقاً للإله الذى كان فى كل الأوقات سوطاً مصالماً على الأرض . إن رسول الطبيعة لن يكون أداة الأوهام المضللة التى تجعل الدنيا مقراً الخداع . إن من يقدر الحقيقة لن ينسجم مع الزيف والباطل . إنه يعلم أن سعادة الجنس البشرى تقتضى بشكل لارجعة فيه ، تقويض صرح الخرافة المظلم المقلقل من أساسه . ليكني يقيم على أطلاله معبداً للطبيعة ملائماً للسلام - هيكل مقدساً للفضيلة . . . فاذا ذهبت جهوده أدراج الرياح وإذا لم يستطع أن يبيث الشجاعة فى الكائنات التى اعتادت أن ترتعد فرائصها جبناً . فإن له على الأقل أن يفاخر بتجاسره على أن يقوم بالمحاولة . وعلى الرغم من ذلك فانه يحكم على جهوده بأنها عقيمة إذا استطاع أن يجعل إنساناً واحداً سعيداً أو يهدىء من إضطرابات ذهن مستقيم واحد ، وأقل ما يقال أنه سوف يفيد من تحرير ذهنه هو من إرهاب الخرافة المزعج . . . ومن أنه وطىء تحت قدميه الأوهام التى تقض مضاجع المنكودى الحظ وتعذبهم . وإذ نجا على هذا النحو من خطر العاصفة استطاع

أن يتأمل في هدوء من قمة صخرته في تلك الأعاصير المروعة التي أثارها
الخرافة ، ومد يد العون إلى أولئك الذين يتقبلونها (١٢٣).

٣ - الأخلاق والدولة :

ولكن هل ينسجم الاتحاد مع الأخلاق الشعبية العامة ؟ وهل يمكن
ضبط الدوافع القوية الأنانية لدى عامة الناس بقانون أخلاقي مجرد من
الإخلاص للدين ومن تأييده ؟ أن دى هولباخ واجه هذه المشكلة في كتابه
« منهج الطبيعة » ثم عاد إليها في ١٧٧٦ في كتاب ذي ثلاثة مجلدات « الأخلاق
العامة » وأنه يرتاب بادية دى بدء في أن الديانة سعت إلى الفضيلة
والأخلاق القويمة .

« على الرغم من الجحيم المروعة البغيضة حتى في مجرد وصفها ، فأى
حشد من المجرمين المهتكين مملأ مدننا . . . وهل الاصوص أو القتل
المعاقبون ملحدون أو متشككون ؟ إن هؤلاء البائسين يؤمنون بالله . وهل
يتحدث أكثر الآباء تمسكا بالدين وهو ينصح ابنه عن إله محب للانتقام ؟
إن انهيار صحته من أثر الزنى وضياع ثروته في المسير ، وازدراء المجتمع له -
هي الدوافع التي دعت الولد إلى النصيح (١٢٤) .

وحتى مع إفتراض أن الدين في بعض الأحيان يساعد الأخلاق ، فهل
يتوازن هذا مع الضرر الذي يلحقه الدين بالانسان ؟

في مقابل إنسان جبان واحد تكبح فكرة الجحيم جماعه هناك آلاف من
الناس لا تؤثر فيهم هذه الفكرة مطلقا . وهناك ملايين منهم تجعلهم هذه
الفكرة غير عقلايين . يعوزهم التفكير السليم ، وتحولهم إلى أدوات إضطهاد
وتعذيب وحشين . وتحولهم إلى خبثاء أشرار . . . متعصبين . كما أن هناك
ملايين تفسد عقولهم وتصرفهم عن واجبهم نحو المجتمع (١٢٥)

وتأمل في النفاق الذي يفرضه الضغط الاجتماعي للدين على المتشككين .
أولئك الذين يريدون أن يكونوا فكرة عن القيود التي فرضها اللاهوت
على عقول وتفكير الفلاسفة الذين ولدوا في ظل « الديانة المسيحية » فليقرأوا
الرومانسيات (القصص الخيالية) الميتافيزيقية التي كتبها لينتز وديكارت
ومالبرانش وكدورث وغيرهم ويفحصوا في هدوء النظم والترتيبات البارعة
ولكن الحماسية المسماة « التناسق المقرر مقدما للأسباب العرضية (١٢٦) » .

وفوق ذلك فإن المسيحية بتركيزها فكر الانسان على الخلاص الفردي
في الدار الآخرة ، أماتت الشعور الانساني والاجتماعي في مثل هذا الفرد .
وتركت الناس غير شاعرين ببؤس رفاقهم ، وبالجزور والاجحاف اللذين
يتعرضون لهما من قبل الجماعات والحكومات الظالمة .

ويرفض دي هولباخ الفكرة المسيحية الفولتيرية التي تقول بأن الانسان
يولد ولديه حساسة الصواب والخطأ . إن الضمير ليس صوت الله بل صوت
رجل الشرطة . إنه رواسب وتراكم آلاف من التحذيرات والأوامر
والتأنيبات تلقاها الفرد منذ نشأته « ويمكن تعريف الضمير بأنه معرفتنا بآثار
أفعالنا على رفاقنا ثم إنعكاسها أو رد فعلها على أنفسنا (١٢٧) . ويمكن أن يكون
هذا الضمير موجهها أو مرشداً زائفاً . فربما تشكل هذا الضمير نتيجة تعليم
منحرف أو خبرة أسىء فهمها ، أو تفكير خاطئ ، أو رأى عام فاسد .
وليس ثمة رذيلة أو جريمة لا يمكن إظهارها في ثوب الفضيلة عن طريق التعليم
أو القدوة السيئة ومن ثم فإن الزنى مهما يكن من أسر تحريم الدين له عمل
يبعث على الفخر . والتلق الدليل مستساخ في البلاط واغتصاب النساء والسلب
والهيب بين الجنود مكافآت مشروعة للمخاطرة بالحياة وتقطيع الأوصال .
« أنا لرى رجالاً أغنياء لا يعانون من وخر الضمير لما جمعوا من ثروة على
حساب مواطنهم » و « وطنين متحمسين متعصبين لوطنهم أعمت ضمائرهم
الأفكار الزائفة الباطلة فأغرثهم بآبادة من يخالفونهم في الرأى دون شعور
بالندم أو تأنيب الضمير » وخير ماأمل فيه هو ضمير تشكل عن طريق تعليم

استعداد للمغامرة يمثل هذه الخسارة في مثل هذا السبيل . وإذا تدرّب التلاميذ على التأمل والتعقل بدلا من غرس الخوف فيهم وإرهابهم بالمعتقدات غير العقلانية التي سرعان ما تفقد قوتها ، فإن أخلاق الرجال لا بد أن تتحسن بتزايد قدرتهم على تطبيق خبرتهم على أفعالهم وتصرفاتهم حيث يتنبأون على ضوء الماضي بما سيكون في المستقبل لأعمالهم الراهنة من نتائج .

وعلى المدى الطويل يكون العقل والذكاء أسمى فضيلة ، ومثل هذه الفضيلة هي السبيل الأمثل للسعادة .

وفي « منهج الطبيعة » و « المنهج الاجتماعي » (٣ مجلدات ، ١٧٧٢) ، و « السياسة الطبيعية » (١٧٧٢ ، مجلدان) و « روح الشعب » (١٧٧٦) عالِم المليونير الذي لا يكمل ولا يمل مشاكل المجتمع والحكومة . وفي هذه الكتب تنتقل الهجمات من الكنيسة إلى الدولة . ويتفق دي هولباخ مع لوك وماركس في أن العمل هو مصدر الثروة ولكنه مثل لوك يبرر الملكية الخاصة على أنها حق للإنسان نتاجاً لعمله وحده . إنه نبيل وقد يتخلص من الأرستقراطية الوراثة .

قد يدعى نفر من الناس حقاً في الثروة ومراتب الشرف فحسب . ولو أن حق المولد واللقب لا بد بالضرورة أن يوهن عزيمة الطبقات الأخرى من المواطنين أو يثبط همهم . إن الذين لا يملكون إلا عراقلة الحسب والنسب أو كرم المحتد ليس لهم الحق في الثراء والشرف . . . ولا يمكن أن نعتبر النبالة الوراثة إلا مجرد سوء استعمال أو تعسف مصطنع لا يصلح إلا ليداري خمول . . . وعجز طبقة بعينها على حساب الأضرار بالمجموع . . . (١٣٢)

وهل أعمال النبلاء القدامى والوثائق القديمة المحفوظة في قصور العصور الوسطى تعطى لورثتها الحق في تولى أرفع المناصب في الكنيسة والدولة وفي دور القضاء أو في الجيش دون اعتبار لما ينبغي أن يتحلى به هؤلاء الورثة من قدرات ومواهب لازمة لحسن القيام بهذه المهام (١٣٣) ؟

أما بالنسبة لرجال الدين فانتركهم يدبرون أمورهم بأنفسهم ، ويجدر أن تنفصل الكنيسة والدولة كل منهما عن الأخرى تمام الانفصال . ويجب أن تعامل الجماعات الدينية على أنها هيئات متطوعة تتمتع بالتسامح ولكن لا تحظى بأى دعم أو تأييد من الدولة . وينبغي على كل حكومة ملتزمة بجانب الحكمة والعقل أن تسد الطريق أمام أية ديانة أو مذهب للجوء إلى التعصب أو الاضطهاد (١٣٤) .

ودى هولباخ رجل دخل من الأرض وغير الأرض ، وهو ينتقد أصحاب الدخول الحاملين من أفراد الطبقة الوسطى . وبوصفه بارونا فإنه يحتقر رجال الأعمال . « ليس ثمة مخلوق حى أشد خطراً من رجل الأعمال الذى يفتش عن فريسته (١٣٥) . أن جشع التجارة يحل الآن محل طموح الأسرة سبباً للحروب : « إن الدول مستعدة لافناء بعضها بعضاً من أجل أكوام من الرجال . إن أمماً بأسرها أصبحت نسخاً طبق الأصل لرجال الأعمال الجشعين الذين يزنون لهم الأمل فى الثروة التى يجنون هم أنفسهم ثمارها ، ومن هنا يتناقص عدد سكان البلاد وتفرض عليهم أبهظ الضرائب ويعانون الفقر والعوز لإشباع فهم فئة قليلة . ويسدد طعنة عابرة إلى بريطانيا التى التهمت الهند وكندا . « هناك شعب يبدر أنه فى نشوة جشعة أعد مشروعاً متطرفاً لاغتصاب تجارة العالم وتملك البحار - وهو مشروع جائز جنونى يؤدى تنفيذه إلى نوع من الخرافات يصيب الأمة التى تسير وراء هذا الخبل . . . وسيأتى اليوم الذى يقذف الهنود هولاء الأوربيين من شواطئهم حين يتعلمون منهم فن الحرب (١٣٦) .

ويميل دى هولباخ إلى الأخذ بسياسة الفيزيوقراطيين فى عدم التدخل (حرية التجارة والصناعة) . « لا يجوز للحكومة أن تعمل للتاجر شيئاً إلا أن تركه وشأنه ، وليس ثمة تعاليم أو تنظيمات يمكن أن توجهه فى مشروعات أفضل من مصلحته هو . . . وليس على الدولة إلا أن تحمى التجارة . إن الأمم التجارية التى تهىء لرعاياها أكبر قدر من حرية التجارة لابد أن تثق

في أنها ستفوق غيرها من الأمم سريعا (١٣٧).

ولكنه عندئذ كذلك ينصح الحكومات بالحيلولة دون تركيز خطير للثروة . ويقتبس عن طيب خاطر عبارة سانت جيروم الرشيقه اللاذعة « الرجل الغني إما وغد أو وريث أحد الأوغاد (١٣٨) » . في كل الأمم تقريبا لا يملك ثلاثة أرباع الرعايا شيئا . . . وإذا استنزف نفر قليل من الناس الممتلكات والثروة في الدولة ، لأصبحوا سادة هذه الدولة المتحكمن فيها . ويبدو أن الحكومات أهملت هذه الحقيقة الهامة إهمالا تاما (١٣٩) . . . وإذا توقفت إرادة الشعب أو القانون عن حفظ التوازن حتى بين مختلف أعضاء المجتمع ، فإن تحول بعض الناس مع الاستعانة بالقوة والحداع والاغراء ينجح (أي الحمرل) في الاستيلاء على ثمار جهود الآخرين وعملهم (١٤٠) .

وفي رأى دى هولباخ أن كل الملوك يتحالفون مع الأقلية البارعة الذكية لاستغلال أغلبية الشعب - ويبدو أنه كان يفكر في لويس الخامس عشر . « إنا لانرى على وجه هذه البسيطة إلا ملوكا جائرين ظالمين ، أو هههم البذخ والترف وأفسدهم الرياء والملق ، كما لوث الفجور والفسق أخلاقهم ، ودفعهم الدنس والرجس إلى الشر والخبث ، لا يتحلون بأية مواهب أو قدرات أو بمكارم الأخلاق ، عاجزين عن بذل أى جهد لخير الدول التي يحكمونها . ومن ثم فانهم لا يهتمون إلا قليلا بمصلحة شعوبهم ، مستهترون بواجباتهم التي غالبا ما يجهلون في الواقع . إنهم إنما تتمسكهم الرغبة في تحقيق أطماعهم التي لا احد لها ، ولذلك يشغلون أنفسهم بحروب عقيمة فيها فناء السكان ، ولا يشغلون أذهانهم أبداً بهؤلاء الرعايا ، وهم أهم شيء من أجل سعادة أممهم (١٤١) .

وواضح أن تفكير دى هولباخ إتجه إلى الحكومة الفرنسية ، فاندفع ينتقد بشدة تكليف رجال المال بمهمة جمع الضرائب ، أى تعيينهم ملتزمين عامين . ويهجو هؤلاء الملتزمين : « إن الحاكم المستبد الطاغية يلجأ إلى

طائفة من المواطنين الذين يهثون له وسائل تحقيق جشعه في مقابل منحهم الحق في إبتزاز أموال الآخرين دون عقاب . . . أنه بسبب غفلته وعماه لا يدرك أن الضرائب المفروضة على رعاياه تتضاعف وإن المبالغ التي تذهب إلى جيوب هؤلاء المبتزين وتزيد ثراءهم تضيع عليه هو نفسه ، وأن جمهور العامة الدليل الخاضع قد يرثى في غمار الحيرة ليشن حربا على الأمة . . . إن هؤلاء اللصوص (الملتزمون العامون) إذ تزداد ثرواتهم يثيرون حقد النبلاء وحسد مواطنيهم . . . وتصبح الثروة هي الدافع الوحيد . . . والظماً إلى الذهب يتملك كل القلوب (١٤٢) .

إن الأرستقراطية الرخى البال يتحدث أحيانا كما يتحدث أشد الشبان القلقين المغمورين غضبا ، هل ينبغي على الأمم أن تعمل دون كلل ولا ملل لأرضاء غرور حفنة عقيمة من مصاصي الدماء ، وتوفير أسباب البذخ والترف لهم وأشباع نهمهم (١٤٣) ؟ . أنه في هذه الحالة النسبة يردد صدى كلمات صديقه السابق روسو في كتابة (العقد الاجتماعي) :

« أن الإنسان شرير لا لأنه ولد كذلك بل لأنهم صيروه شريرا . أن العظماء وذوى السيطرة والقوة يسحقون الفقراء المعوزين والبؤساء دون عقاب . إن هؤلاء يغامرون بحياتهم في سبيل الثأر مما لحق بهم من أذى وشر . إنهم بها جمون جهراً أو سرا البلد الذي هو بالنسبة لهم زوجة أب تعطى لبعض أبنائها كل شيء وتحرم الآخرين من أى شيء . . . والإنسان في كل مكان تقريباً عبد رقيق . ويتبع هذا بالضرورة أن يكون حقيراً أنانياً مرئياً منافقاً بلا شرف ، وباختصار يتصف بكل رذائل الدولة التي هو فرد فيها . أن هذا الإنسان في كل مكان مخدوع مضال يشجع على الجهل ، محروم من استخدام عقله ، فلا بد أن يكون بطبيعة الحال في كل مكان غيبياً غير متعقل شريراً ، وهو في كل مكان يرى إمتداح الرذيلة والجريمة وتكريمها . ويستخلص من هذا أن الرذيلة حسنة ، وأن الفضيلة تضحية لأغناء فيها . . . وإذا كانت الحكومات مستنيرة مشغولة جدياً بتربية الشعوب

وتعليمها ومصالحتها وإذا كانت القوانين عادلة ، فلن يكون من الضروري التماس أحلام وأوهام مالية في حياة أخرى يثبت دائما أنها ناقصة غير وافية أمام إنفعالات الإنسان الخائفة وحاجاته الحقيقية^(١٤٤) .

وكيف يتسنى إيقاف هذا الاستغلال ؟ إن أول خطوة في هذا السبيل هي الغاء الحكم الاستبدادي المطلق . « إن الحكم المطلق لأبد أن يفسد بالضرورة قلب من يتولاه وعقله^(١٤٥) . . . ويجب دائما أن تخضع سلطة الملوك لمثل الشعب ، كما يجدر أن يعتمد هؤلاء الممثلون باستمرار على إرادة ناخبهم^(١٤٦) » وهنا مناداة بدعوة مجلس الطبقات المشثوم ١٧٨٩ . « ومن حيث أن أية حكومة تستمد سلطتها من رضا المحكومين » فإن أى مجتمع يمكنه في أى وقت أن يسحب هذه السلطات إذا لم تعد الحكومة تمثل الإرادة العامة^(١٤٧) . « وهنا يتمثل صوت روسو والثورة .

ولكن الثورة ، بثمن غال أحيانا ، تهدم الماضي وتقضى عليه لكي تقيمه من جديد تحت شعار آخر وبصيغة أخرى : « لا يمكن شفاء جراح الأمة عن طريق الأضطرابات العنيفة والصراعات وقتل الملوك والجرائم العقيمة . إن هذه العلاجات العنيفة هي دائما أشد قسوة من المساوىء المقصود القضاء عليها أو التخلص منها . . . أن صوت العقل ليس مثيرا للفتنة وليس متعطشا للدماء . ويمكن أن تكون الإصلاحات التي يهدف إليها متأنية ولكنها لذلك تتوخى خير تخطيط^(١٤٨) .

إن الناس بعيدون عن الكمال وليس في مقدورهم أن يصنعوا دولا بالغة حد الكمال . واليوتوبيا (المدينة الفاضلة) ضرب من الأوهام « تتعارض مع طبيعة الكائن » بآلته « الواهنة المعرضة للخلل وخياله المتوقد الذي لا يصغى دائما لدى العقل . . . أن الوصول بالسياسة إلى مرتبة الكمال لن يكون إلا الثمرة البطيئة لخبرة قرون^(١٤٩) . وليس التقدم خطأ مستقيا بل هو خط طويل ونحن نحتاج إلى أجيال كثيرة من التعام والخبرة لتبيان أسباب العلل أو الأمراض الاجتماعية ووسائل البرء منها . والديمقراطية مثل أعلى

وهي ممكنة في الدول الصغيرة وحدها ، مع إزدياد وعى الشعب وعقله وذكائه . وقد لا يكون من الحكمة إقامة ديمقراطية في فرنسا في عهد لويس السادس عشر . وقد يستخدم هذا الملك الجديد الطيب ذو المتأصل الحسنه أناسا ذوي قدرات ومواهب عظيمة لأصلاح الدولة . وهكذا يرتضى دى هولباخ ، آخر الأمر ملكية دستورية ويهدى كتابة الأخير روح الشعب « إلى لويس » الملك العادل الإنسانى المحب للخير أبى الشعب وحامى الفقراء (١٥٠) وتعلق الفيلسوف العجوز بهذا الأمل المستميت .

٤ - دى هولباخ ونقاده :

إن « منهج الطبيعة » هو أشمل وأكمل وأصرح عرض للمادية والاحداد في تاريخ الفلسفة بأسره . أن تردد فولتير وتناقضه ودقته التي لا نهاية لها ، وحماسة ديدرو والغامضة وكتابات المتعارضة ، ورفض روسو المشوش المربك لما يكتبه جان جاك روسو نفسه ، كل أولئك حل محله هنا تماسك دقيق وإتساق شديد بين الأفكار ، وتعبير قوى في أسلوب عميق أحيانا ، مشرق أحيانا ، فصيح غالبا ، ولكنه دائما أسلوب مباشر وأضح . ومع ذلك فقد أدرك أن سبعمائة صحيفة من هذا النوع قد لا يستوعبها عامة القراء . وتلطف دى هولباخ على أن يقبل على قراءة الكتاب أكبر عدد من الناس ، ومن ثم فإنه شرح آراءه . ووجهات نظره مرة أخرى في شكل أبسط في حسن الإدراك ، أو « أفكار في مواجهة الأفكار الخارقة للطبيعة » (١٧٧٢) . وقلما تميز كاتب بمثل هذه المثابرة والجد في نشر مثل هذه الآراء غير المألوفة التي يريد أن يقنع الناس بها .

وأنه لما يدل على سعة إنتشار آراء دى هولباخ رد فعل « منهج الطبيعة » على فردريك الأكبر ، إن هذا الملك الذى كان يخطب ودالفلاسفة ، والذى مجدوه وأمتدحوه على أنه راعيهم ومثلهم الأعلى ، أنقلب عليهم حين رأى أحد قادتهم يهاجم الملكية المطلقة والمسيحية بقدر سواء . لقد كان من

مصالحته أضعاف الوحدة الداخلية بين الدول الكاثوليكية نتيجة للحملة ضد الكنيسة ، وليكن آثار إستيائه وربما آثار مخاوفه أن يبلغ التمرد حداً يتجاسر معه الآن على تحقير الملوك والنيل من الآله . أن نفس القلم الذي دبح يوماً ضد المكيافيلية ، يكتب الآن تنفيذ منهج الطبيعة ، أن هذا الرجل دى هولباخ قد ركب متن الشطط : يقول فردريك « إذا تحدث إنسان إلى عامة الناس علانية فيجدر به أن يأخذ في إعتباره رقة الآذان الخرافية ، ويجدر به إلا يصعق أحداً ، وينبغي عليه أن يترث حتى تبلغ الأستنارة حداً يسمح له بالجهر بأفكاره (١٥١) .

ووأضح أنه بناء على إينحاء فردريك ، ولكن من الجائز أكثر من ذلك أنه نتيجة الخوف من أن تؤدي شدة تطرف دى هولباخ إلى انفضاض الناس من حبل الفلاسفة . اللهم إلا الملحدين والثوريين ، نجد فولتير وكأنا هو قائد جيش يؤنب ضابطاً (ملازماً أول) وقحا - خصص في مقاله « عن الله » في « قاموسه الفاسق » عدة صفحات ينتقد فيها رائعة دى هولباخ ، فهو يقول في بداية كلامه :

« أن المؤلف أفاد من أن الجميع يقبلون على قراءته : العلماء والجهلة والنساء على حد سواء . إن لاسلوبه مزايا نفتقدها عند سبينوزا . وهو في الغالب وأضح وأحياناً فصيح ، على الرغم من أنه مثل الباقيين قد يؤخذ عليه التكرار والأسلوب الخطابي والتناقض الذاتي . أما من حيث عمق التفكير فالغالب أنه لا يوثق به في الفيزياء وفي الاخلاق كليهما . وهنا تكمن مصلحة الجنس البشرى ومن ثم يجدر أن نتبين هل نظريته صحيحة ومفيدة » .

ولا يوافق فولتير على أن النظام الذي ننسبه إلى الكون ، والحلل الذي نظن أننا قد نجد فيه ، هما أفكار أو أهواء ذاتية . وحاول أن يبرهن على أن النظام بارز إلى ابعده الحدود وأن الحلل أحياناً وأضح إلى حد مؤلم :

« ماذا ! أليس الطفل الذي يولد أعمى أو بلا رجلين أو غير سوى بشع إلى حد بعيد يتعارض مع طبيعة الجنس البشرى ؟ إليس الأطراد المعتاد في

الطبيعة هو الذى يصنع النظام والشذوذ هو الذى يشكل الخلل ؟ أليست فوضى صارخة وخطلا رهيبا أن تعتمد الطبيعة إلى تجويع طفل وتخلق له مريثا محدودا ؟ إن الأخراج بكل أنواعه ضرورى ، ولكن قنوات الإفراز كثيرا ما تكون بلا فتحات ، مما يتطلب العلاج ، ويبقى منشأ الخلل عرضة للكشف عنه ولكن الخلل حقيقة واقعة .

ومن حيث كون المادة لها قوة توليد الحياة والدهن فإن فولتير على الرغم من أنه كان يوما ميالا إلى الأخذ بوجهة النظر هذه ، آثر « لا أدريّة » متواضعة على إفتراضات دى هولباخ الواقعة :

« إن الخبرة (وهو هنا ينقل من كتاب منهج الطبيعة) تثبت لنا أن المادة التى نعتبرها جامدة ميتة ، تدعى الفعل والحياة والعقل إذا إتحدت وتجمعت بطريقة معينة » وتلك هى المشكله بعينها ، كيف تنشأ جرثومة حية ؟ أن المؤلف والقارىء كليهما يجهلان هذا على حد سواء ، ومن ثم ألا يكون منهج الطبيعة وكل المناهج الفلسفية فى العالم بأسره مجرد أحلام ؟ يقول دى هولباخ : « من الضرورى أن نعرف المبدأ الحيوى الأساسى ، وأحسب أن التعريف متعذر » . أليس هذا التعريف ميسورا جداً اليس تنظيم الحياة بالشعور ؟ ولكن من المستحيل أثبات أن هاتين الخاصيتين تنشئان فقط من المادة وهى فى حركة . وإذا كان من المستحيل أثبات هذا فقيم توكيده ؟ . . . أن كثيراً من القراء يشعرون بالسخط والاستياء لاتخاذ هذا الأسلوب الحاسم فى الوقت الذى لم يتم فيه تفسير أى شىء . . . فإذا تجاسرت على توكيد أنه لا يوجد إله أو أن المادة تعمل بنفسها بمقتضى ضرورة أبعديه ، فيجدر أن تشرح هذا وتقيم عليه الدليل ، مثل قضيه من قضايا إقليدس وإلا أقمت منهجك على « ربما » ، أى مجرد الاحتمال . وأى أساس هذا لمعتقد على أعظم جانب من الأهمية للجنس البشرى .

وكان دى هولباخ قد أيد التوالد التلقائى بأشارته إلى تجارب اليسوعى الانجليزى نيدهام (١٧٤٨) الذى إعتقد بأنه كان قد أنتج كائنات جديدة

من مادة ليس فيها حياة . وكان فولتير يقظا لآخر تطورات العلم ، فأشار إلى تجارب سبيلانزاني (١٧٦٥) الذي أوضح خطأ إجراءات نيدهام وما انتهى إليه من نتائج . ولم يكن دي هولباخ قد رأى في الطبيعة أي تصحيح أو تخطيط ، ولكن فولتير يرى الكثير ، ويحاول أن يبرهن على أن نمو العقل وتطوره في الإنسان يدل على عقل في الكون أو فيما وراءه ، ويعود آخر الأمر إلى قضيته المشهورة « إذا لم يوجد إله فمن الضروري أن نصطنعه ، وأنه بدون إيمان بكائن أسمى في عقله وعدله ، فإن الحياه بكل ما فيها من أسرار وبؤس وشقاء تكون غير محتملة ، وينضم إلى دي هولباخ في إزدراء الخرافة ، ولكنه يدافع عن الدين باعتباره مجرد عبادة بسيطة لاله . ويختتم في رفق فيقول : « إنني ميال إلى القول بأنك وقعت في خطأ جسيم ولكتي بنفس القدر مقتنع بأنك صادق أمين في أنك مخدوع خداعا ذاتيا . يمكن أن تجد أناساً فضلاء دون وجود إله . ولو أنك من سؤال الحظ قلت « سرعان ما تجعل الرذيلة الإنسان سعيدا حتى يجب الرذيلة » . وتلك قضية مزعجة كان يجدر بأصد قائلك أن يقنعوك بمحوها . أنك في كل مكان آخر توحى بالاستقامة والأمانة . إن هذا الصراع الفلسفي سيكون فقط بينك وبين نفر قليل من الفلاسفة منتشرين في أوروبا . ومن يسمع عنه سائر العالم شيئا . إن الناس لا يقرأوننا . . . أنت مخطيء . ولكننا نقدر ونجل عبقريتك وفضائلك (١٥٢) » .

ولسنا ندري إذا كان فولتير راضيا كل الرضا عن هذا التفنيد من كل قلبه . وأنا لناحظ ملاحظته البسيطة العابرة عندما سمع أن فردريك كان قد كتب كذلك ضد « منهج الطبيعة » « إن الله كان في صفه إثنان على الأقل من أبعاد الناس عن التمسك بالخرافات في أوروبا - مما لأيد أن يكون قد إثلج صدره كثيرا (١٥٣) وطلب إلى الدوق دي ريشيليو أن يحيط لويس الخامس عشر علما بأن المغرب العنيد في فرني كان قد كتب ردا على الكتاب الجريء المتهور الذي كان حديث الناس في باريس .

ونشر أصدقاء دي هولباخ نقد فولتير وسيلة للاعلان عن أفكار البارون: واتخذ شباب المتمردين المادية سمة للبسالة والشجاعة في الحرب ضد الكاثوليكية ودخلت فلسفة دي هولباخ إلى روح الثورة الفرقتسية قبل روبسبير وبعده - وكان يؤثر روسو . وانا لنسمع أصدقاء كتاب « منهج الطبيعة » في كامي ديمولان وماراه ودانتون^(١٥٤) قال فاجيه « إن دي هولباخ أكثر من فولتير وأكثر من ديدرو ، هو أبو الفلسفة والهجوم العنيف على الدين في أواخر القرن الثامن عشر والنصف الأول من القرن التاسع عشر^(١٥٥) وفي عهد حكومة الإدارة أرسل أحد الوزراء نسخا من أحد كتب دي هولباخ إلى رؤساء المصالح والهيئات في محافظته للحيلولة دون بعث الكاثوليكية من جديد^(١٥٦) . وأنا لنحس تأثير دي هولباخ في إنجلترا في مادية بريستلي (١٧٧٧) ونبع كتاب جودوين « بحث في العدالة السياسية » من دي هولباخ وهلفشيوس وروسو بهذا الترتيب في التأثير^(١٥٧) . وبدأ الأتحاد المتحمس عند شللي صهر جودوين ، بقراءة « منهج الطبيعة » الذي شرع في ترجمته كوسيلة لا شراك أساتذة أكسفورد في الحملة ضد الدين^(١٥٨) . أما في ألمانيا فإن مادية دي هولباخ وتشاك هيوم هما اللذان أيقظا كانت من « سباته العقائدي » وربما ورث ماركس بطرق غير مباشرة تعاليمه المادية عن دي هولباخ .

وقبل أن يكتب البارون بزمن طويل كان بيركلي قد آذى المادية أكبر ايداء . فالذهن هو الحقيقة الواقعة الوحيدة المعروفة مباشرة . والمادة (منذ عرفها دي هولباخ بأنها كل ما يؤثر في حواسنا) معروفة بطريق غير مباشر ، عن طريق الذهن . ويبدو أنه غير معقول أن نهبط بالمعروف مباشرة إلى ما هو معروف بطريق غير مباشر . وليست المادة واضحة لدينا كما تعودنا أن تكون . إن الذرة تحيرنا كما يحيرنا الذهن سواء بسواء . فكلاهما يحلل إلى أشكال من الطاقة لا يتيسر لنا فهمها ، وأنه لمن العسير الآن ، كما كان عسيرا في أيام لوك وفولتير . أن نتصور كيف يمكن أن تصبح المادة فكرة أقل وعيا بكثير . أن التفسير الميكانيكي للحياة أثبت أنه مجرد في الفسيولوجيا ،

ولكن يبقى الاحتمال قائماً . وهو أن الأعضاء (المادة) يمكن أن تكون نتاجا وأدوات للرجبة (الدهن) مثل عضلات اللاعب الرياضى . إن الميكانيكية (الآلية) والحتمية بل حتى القانون الطبيعى « قد تكون تيسيرات وأيضاحات عاجلة لا تقبل الجدل من الناحية المنطقية ، لأنها أدوات إصطنعها الدهن لتناول الظاهرات والأحداث والأشياء تناولا ملاماً ، وأصبحت هذه الأدوات عناصر لا مفر منها فى الفكر العلمى ، ولكنها غير مرضية إذا طبقت على الدهن الذى شكلها . إننا لا نعرف أن العالم منطقى .

* * *